وسرّ ذلك هو أنها لمّا كانت موضوعة لتأكيد الجملة الابتدائيـة لا جَرَمَ اغتُفر دخولهـا على النكرات وهيأتها للحديث عنها كما ذكرناه

الفائدة الرابعة هو أنها اذا دخلت على الجملة الابتدائية فقد يجوز الاقتصار على الاسم دون الخبر وهذا كقوله

إنّ محلاً وإنّ مُرتَحَلاً وإنّ فى السفرِ إذْ مَضَوْا مَهَلا

وهذا إنما يكون حيث يكون الخبرُ معمولاً مدلولاً عليه بالقرينة ، لأن المعنى إن لنا محلاً فى الدّنيا وإن لنا مرتحلاً الى الآخرة ، فهذا ما أردنا ذكره من هذه الصور الخارجة عن الضوابط ، وبتمامه يتمّ الكلام فى الفصل العاشر من الباب الثانى من فن المقاصد ، وهو الكلام فى الدلائل الإفرادية وبالله التوفيق

الباب الثالث

(فى مراعاة أحوال التأليف وبيان ظهور المعانى المركبة)

اعلم ان جميع ما أسلفناه إنمـا هو كلامٌ فى الأمور الإفرادية الاّ أن يَعْرِض عارضٌ فيجرى فى الامور المركبة ، والذى نذكره الآنَ إنما هو كلامٌ فى الأمور المركبة ، الاّ

أن يعرض ما يوجب الإفراد ، وقبل الخوض فيما نُريده من ذلك نذكر تمهيداً لما نُريد ذكره من بعدُ ، وينبنى على قواعد ثلاث

(القاعدة الأولى)

يجب على الناظم والناثر فيما يقصدُ من أساليب الكلام مراعاةُ ما يقتضيه علم النحو أُصولُه وفروعه من تعريف المبتدإ وتقديمه وجوباً ، اذا كان استفهاماً ، أو شرطاً ، وجوازاً فى غير ذلك ، ومراعاةُ تنكير الخبر ، وتقديمه اذا كان المبتدأ نكرة ، وأن يُراعى فى الشرط والجزاء ، كونُ الجملة الأولى فعلية وجوباً ، والثانية بالفاء اذا كانت جملة اسمية ، أو فعلية إنشائية ، كالأمر والنهى ، أو خبرية ماضيَة ، وأن يأتى بالواو فى الجملة الاسمية اذا وقعت حالاً ، وتحذف مع المضارع المثبت ، وأن يضع كلَّ حرف لما يقتضيه معناه بالأصالة ، فيأتى (بما) لنفى الحال و (بلا) لنفى الاستقبال و (بإن) الشرطية فى المواضع المحتملة المشكوك فيها و (باذا) فى المواضع الصريحة و (بإذْ) لما مضى وينظر فى الجمل ، وما يَجب من مراعاة عود الضمير فيها وما لا يجب ، ويتصرّف فى التعريف والتنكير ، والتقديم

والتأخير ، والإضمار والإظهار ، ومواضع الاتصال والانفصال فى الضمائر ، وتعلّقات الحروف الى غير ذلك مما توجبه صناعة علم الاعراب ، ويوجبه حكمُه

(القاعدة الثانية)

يجب عليهما مراعاةُ ما يقتضيه اللفظ من الحقيقة والمجاز واعلم أن المجاز يدخل دخولا أوليًّا ، وله مَدْخلٌ عظيمٌ ، وهو أحق بالاستعمال فى باب الفصاحة والبلاغة ، وقد شرحنا قوانينه فيما سبق فأغنى ذلك عن الإعادة ، والذى نُريد ذكره ههنا هو أن فائدة الكلام الخَطابىّ إنما يكون لإثبات الغرض المقصود فى نفس السامع ، وتمكّنه فى نفسه على جهة التخيُّل والتصوّر ، حتى يكاد ينظر اليه عيانًا ، وبيان ذلك أنا إذا قلنا زيد أسد ، فإنه يفيد فائدة قولنا زيد شجاع ، لكن التفرقة بين القولين فى التصور والتخيل ظاهرةٌ ، فإن قولنا : زيد شجاع ، لا يتخيل منه السامعُ سوى أنه رجل جرىء فى الحروب ، مقدامٌ على الابطال ، واذا قلنا ، زيد أسد ، فإنه يتخيل عند ذاك صورة الأسد وهيئته وما هو متصف به من الشجاعة والبطش ، والقوة والاستطالة على كل حيوان ،

واختصاصه بدَقّ الفرائس وهَضْمها ، وهذا لا نزاع فيه ، ومِمّا يوضّحُ ماذكرناه هوأن العبارة المجازية تكسبُ الإنسان عند سماعها هزّةً وتُحرّكُ النشاط، وتُمايلُ الأعطاف ، ولأجل ذلك يُقْدِمُ الجبانُ ، ويسخُو البخيلُ ، ويحلُم الطائش ، ويبذُل الكريم نهايةَ البذل ، ويجدُ المخاطَبُ بها نشوَةً كنشوة الخمر، حتى اذا قُطِع ذلك الكلامُ أفاقَ من تلك السكرة ، وهبّ من سِنَةِ تيك النّوْمة ، وندِمَ على ما كان منه من بذل مال ، أو ترك عقوبة ، أو إقدام على أمر هائل ، وهذه هى فائدة سحْر لسان الفصيح اللوذعيّ ، المستغنى عن إلقاء الحبال والعِصيّ ، ومصداقُ هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحراً ، يُشير به الى ما قلناه ، فهذه هى فائدةُ المجاز ، نعَمْ اذا ورد كلامٌ يكون محتملاً للحقيقة والمجاز جميعاً فى موارد الشريعة ، كان حملُه على حقيقته أحقَّ من حمله على مجازه ، لأنها هى الأصل ، والمجاز فرعٌ ، وقد قررنا هذا المأخذ فى الكتب الأصولية ، وهمُنا ما يتعلق بعلوم البلاغة

(القاعدة الثالثة)

يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة ،

والجمل المركبة ، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذاً بعضها بأعناق بعض ، وعند ذلك يَقْوَى الارتباطُ ويصفو جوهرُ نظام التأليف ، ويصير حاله بمنزلة البناء المُحْكَم المرصوص المتلائم الاجزاء ، أو كالعقد من الدرّ فُصِّلَت أسماطُه بالجواهر واللآلىء ، نخلُص على أتم تأليف ، وأرْشَق نظام ، ولنضرب فى ذلك مثالين

(المثال الأول) فى المدح وهذا كقول البحترى

بلَوْنا ضَرَائبَ مَنْ قد مَضى … فما إِنْ رأينا لفَتْحٍ ضَرِيبَا
هو المرءُ أبْدَت لهُ الحادثا … تُ عَزْماً وَشِيكاً ورَأْياً صَلِيبَا
تَنَقّلَ فى خُلُقَىْ سُؤْدُدٍ … سماحاً مرجًّى وبأساً مَهِيبَا
فكالسيف إِن جئتَهُ صارخاً … وكالبحر إِنْ جئتَه مُسْتَثِيبَا

فانظرْ إلى إِجادته فى تأليف هذه الكلمات التى صارت كالأصباغ التى يُعْمَلُ منها النقوشُ ، فما أحْسَنَ موقعَ قوله هو المرءُ ، كأنه قال (فَتْحٌ) هو الرجل الكامل فى الرجولية ، ثم تأَمّلْ الى تنكيره السؤدد وإِضافة الخُلقين اليه ، ثم عقّبه بقوله : فكالسيف ، فلقد أجاد فى التشبيه وأحسن فى صوغه (وليس كلُّ آذانٍ تسمع القيل) فليس إِذا راق التنكيرُ فى

موضع يروق فى كلّ موضع ، بل ذاك على حسب الانتظام ومأخذ السياق يفوق و يزداد إعجاباً وحسناً ، فأنت اذا فكرت فى هذه الأبيات وجدتها قد اشتملت على نهاية المدح مع ما حازته من جودة السبك وحسن الرصف فى أسهل مأخذ وأعجبه ، وهكذا يكون الإعجاب فى القلّة والكثرة بحسب ما ذكرناه

(المثال الثانى) فى الذمّ وهذا كقول الشاعر

قومٌ اذا استنبح الأضياف كلبهمُ
قالوا لأمّهمِ بُولى على النارِ

(١) فتأليف هذا البيت مشتملٌ على نهاية الهجاء حتى لا تكاد لفظة من ألفاظه الاّ ولها حظّ فى الذمّ والنقص لهؤلاء ، فقوله (قوم) هو مخصوص بالرجال ، وفيه دلالة على أنهم أعرابٌ

---

(١) فتأليف الى آخر ما قال في بيان وجوه الذم فيه . عبارة سخيفة وهاك عبارة الاصمعي . قال هـذا البيت أهجى بيت قالته العرب . لانه جمع ضروباً من الهجاء . نسبهم الى البخل لكونهم يطفئون نارهم مخافة الضيفان . وكونهم يبخلون بالماء فيعوضون عنه البول . وكونهم يبخلون بالحطب فنارهم ضعيفة تطفئها بولة . وكون البولة بولة عجوز . وهى أقل من بولة الشابة . ووصفهم بامتهان أمهم . وذلك للؤمهم .

جُفاةٌ ليس لهم ثروة ولا تمكّنُ فلا يألفون شيئاً من مكارم الأخلاق ، ثم انه اتى (باذا) التى تؤذن بالشرط المؤقت المعيّن ، ليدلّ به على أن الأضياف لا يعتادونهم الا فى الاوقات القليلة ، ثم إنه عقبه بسين الاستفعال لتوذن أن كلبهم ليس من عادته النُّباح ، وانما يقع منه ذلك على جهة النّدرة لإنكاره للضيف ،وأنّه لا عهدَ له بهم ، ثم جاء بالأضياف على جمع القلّة ، لمّا كانوا لا يقصدهم الا نفرٌ قليلٌ ، ثم عرَّفَهُ باللام إشارةً الى أنهم قومٌ معهودون لا يقصدهم كلُّ أحد ، وفيه دلالة أيضاً على أن كلبهم لا ينبح الا بالاستنباح لهزاله وقلة قوته من الجوع والضعف ، ثم أفرد الكلب ليدل على انهم لا يملكون سواه لحقارة الحال وكثرة الفقر ، ثم إنه أضاف الكلب اليهم استحقارا لحالهم ، ثم انه أتى بقالوا ، ليعرف من حالهم أنهم لا خادم لهم يقوم مقامهم فى ذلك ، وأنهم يباشرون حوائجهم بأنفسهم ، ثم جعل القول منهم مباشرةً لأمهم ، ليدلّ على أنه لم يكن هناك من يخلفها من خادمة وغيرها فى إطفاء النار ، فأقام أمهم مقام الأمة والخادمة فى قضاء الحوائج لهم ، ولم يُشرّفوها عن ذلك ، ثم جعلهم قائلين لما يستنكر من لفظ البول لأن ذكره يشعر بذكر مخرجه من العورة فى حق الأم فلم يكن

هناك حشمة لهم ولا مُروءة فى إضافة ما أضيف اليها من ذلك، ثم قال على النار، فيه دلالة على ضعف نارهم لقلّة زادهم، وأنه يطفئها بولة، وأنها إنما أُمرتْ بذلك، كى لا يهتدى الأضياف اليهم ولا يعرفوا مكانهم، ثم أتى بلفظة على، ولم يقل فوق النار، ليدل بحرف الاستعلا على أنها قصدت حقيقة الاستعلاء بالبول قائمة من غير مبالاة فى التستّر ولا مروءة فى تغطية العورة، فقد وضح لك بما قررناه أن التأليف هو العمدة العظمى والقانون الأكبرُ فى حسن المعانى وعظم شأنها وفخامة أمرها، ومن الأمثلة الرائقة ما يؤثر عن أمير المؤمنين قاله فى أول خلافته: (ان الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشرّ، فَخُذوا نهجَ الخير تهتدوا، واصْدِفُوا عن سَمْت الشرّ تقْصِدوا، الفرائضَ الفرائضَ، أدُّوها الى الله تُؤَدِّكم الى الجنّة، إن الله تعالى حرَّمَ حراما غير مجهول، (١) وفضّلَ حُرْمة المسلم على الحُرَمِ كلها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقِدِها، فالمسلمُ من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق، ولا يحلُّ أذى المسلم الا بما يجب، بادروا أمرَ العامة، وخاصّةَ أحدكم وهو الموت فان الناس أمامكم

(١) سقط هنا قوله. وأحلّ حلالا غير مدخول

وإنّ الساعةَ تَحْدُوكم من خلفكم ، تَخَفَّفوا تَلْحَقُوا ، فإنما ينتظر بأوّلكم آخرُكم ، اتقوا الله فى عباده وبلاده ، فإنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، واذا رأيتم الخيرَ فخُذوا به ، ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه) فلينظر الناظر ما اشتمل عليه هذا الكلام من حسن التأليف وبديع التصريف ، وليلحظ ما تضمنه قوله ، تخففوا تلحقوا ، بعين البصيرة وما اشتمل عليه من بلاغة المعانى وجزالة الالفاظ ، وإنه لكلامُ مَن استوى على عرش البلاغة واستولى ، ودلّ بالارشاد على مصالح الدين والدنيا ، فعليك بمراعاة جانب التأليف فإنه القطبُ الذى تدور عليه أرْحيَةُ البلاغة ، ولا سبيل الى جذبه بزمامه ، والاستيلاء على كماله وتمامه ، الا بعد إحراز فصول تكون محتوية على أسراره ، ومستولية على المقصود منه

الفصل الاول

(فى ذكر الاطناب وبيان معناه)

اعلم أن الإطناب وادٍ من أودية البلاغة ، ولا يرد الاّ فى الكلام المؤتلف ، ولا يختص بالمفردات ، لأن معناه

لا يحصل الاّ فى الأمور المركبة ، فمن أجل هـذا خصصّناه بالإيراد فى هذا الباب ، والاطنابُ مصدر أطنب فى كلامه إطناباً ، إذا بالغ فيه وطوّل ذيوله لافادة المعانى واشتقاقه من قولهم: أطنب بالمكان اذاطال مُقامه فيه ، وفرس مطنب (١) اذا طال مَتْنُه ،ومن أجْل ذلك سُمّى حبل الخيمة طُنُباً لطوله ، وهو نقيض الإيجاز فى الكلام، فلنذكر ماهيته والتفرقة بينه وبين التطويل ، ثم نذكر أقسامه ، ثم نُرْدفه بذكر الأمثلة فيه ، فهذه مباحث ثلاثة نفصّلها بمعونة الله تعالى

﴿ البحث الاول ﴾

(في ماهيته والتفرقة بينه وبين التطويل)

ومعناه فى لسان علماء البيان هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدةٍ جديدةٍ من غير تريد فقولنا: هو زيادة اللفظ على المعنى ، عامٌّ فى الإطناب ، وفى الألفاظ المترادفة كقولنا : ليثٌ وأسدٌ ،فإنه كله من باب زيادة اللفظ على معناه ، وقولنا لفائدة ، يخرج عنه التطويلُ ، فإنه زيادة من غير فائدة ، وقولنا جديدة ،

---

(١) صوابه وفرس أطنب . وصفا من طنب الفرس . كطرب طال ظهره

تخرج عنه الالفاظ المترادفة ، فإنها زيادة فى اللفظ على المعنى لفائدة لغوية ، ولكنها ليست جديدة ، وقولنا من غير ترديد ، يحترز به عن التواكيد اللفظية كقولنا : اضرب اضرب ، فانها زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة ، وهو التأكيد ، لكنه ترديد اللفظ وتكريره ، بخلاف الإطناب فانه خارج عن التأكيد ، فوضح بما ذكرناه شرح ما هيّة الإطناب بهذه القيود التى أشرنا اليها ، فصارت الأمور التى يلبس بها الإطنابُ ثلاثة ، التطويل ، وهو مزيد من غير فائدة ، والتكرير ، والترادف ، وقد خرج التكرير بقيد الترديد ، وخرج المترادف بقيد الفائدة الجديدة ، وخلُص باعتبار هذه القيود عن غيره من سائر الحقائق ، فكان حاصل الإطناب الاشتداد فى المبالغة فى المعانى ، أخذاً من قولهم : أطنبت الريح ، اذا اشتدّ هبوبها ، وأطنب الرجلُ فى سيره ، إذا اشتد فيه ، وهو غير مناقض لما ذكرناه فى اشتقاقه فى صدر الباب

(وأمّا) التفرقة بينه وبين التطويل فاعلم أنّ علماء البيان لهم فى ذلك مذهبان ، المذهب الاول أنّ الإطناب هو التطويل ، وهذا هو المحكىُّ عن أبى هلال العسكرى ، وعن

الغانمى أيضاً ، وقالا : ان كتب الفتوح والتقاليد كلّها ينبغى أن تكون مطوّلةً كثيرة الاطناب ، لأنها مما يقرأ على عوامّ الناس لافتقارها الى البيان ، فكلامُهما يقضى بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل ، المذهب الثانى أنهما يفترقان فان الإطناب يذكر لفائدة عظيمة بخلاف التطويل ، فإنه لا فائدة وراءه ، وهذا هو الذى عليه الأكثر من علماء البلاغة ، واليه يشير كلام ابن الأثير وهذا هو المختار ، ويدلُّ على ما قلناه من التفرقة بينهما ، هو أن الإطناب صفة محمودة فى البلاغة ، بخلاف التطويل ، فإنه صفة مذمومة فى الكلام ، وما ذاك الاّ لأن الإطناب يجئ من أجل الفائدة بخلاف التطويل ، فانه يكون من غير فائدة ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن ما يتوصّل به الى البُغْيَة من معانى الكلام أمورٌ ثلاثة ، الايجاز ، والإطناب ، والتطويل ، فأما الإيجازُ فهو دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فَيُخِلّ ، ولا زيادةٍ فيُمِلّ ، وقد رمزنا الى أسراره فيما سبق ، وأمّا التطويلُ والإطنابُ فهما متساويان فى تأدية المعنى ، خلا أنّ الإطنابَ مختص بفائدة جديدة ، ولأجلها كان ممتازاً عن التطويل ، ومثال ما قلناه من ذلك كمَنْ سلَكَ لطلب مقصدٍ من المقاصد ثلاثَ طرُق فانها

كلّها موصلةٌ الى ما يريده ، فأحدها أقربُ الطّرُق ، وهو نظير الإيجاز والطريقان الأُخريان متساويتان فى الإطالة ، وهما نظيرا الإطناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختصٌّ إما بمُتَنَزّهٍ حسنٍ ، أو بمياهٍ عذْبَةٍ ، أو زيارة صديق أو غير ذلك من الفوائد فهو نظير الإطناب كما لخصناه ، وأصدقُ مثال فى الإيجاز ، والإطناب ، والتطويل ، ما حكاه ابن الاثير وهو أن المأمون لما وجّه طاهرَ بن الحسين فى عسكر لحرب عيسى ابن مَاهَانَ فقتله وهزم عسكره ، واستولى على جنده ثم كتب اليه طاهر يخبره بذلك فقال : كتابى الى أمير المؤمنين ورأسُ عيسى بن ماهانَ بين يدىّ وخاتمه فى يدى ، وعسكره مُتَصرّف تحت أمرى والسلام، فهذا كتاب قد أوجز فيه غاية الايجاز وأتى فيه بالغرض المقصود من غير تطويل ولا إطناب ، لاشتماله على تفاصيل القصة وإجمالها ، وهو من أحسن أمثلة الايجاز ، وإنْ وجهته على جهة الاطناب فإنك لتشرح القصّة مفصلة وتودع التفاصيل زُبَدًا عظيمة من تعظيم المأمون وقوة سلطانه ونهضة جُند الإسلام واستطالته على الكُفّار من أهل الردّة ، لأن عيسى بن ماهان كان نصرانيًا فيما قيل ،

ويَحكى صفة الواقعة وما كان مع فوائد عظيمة ونكت جمَّة ، فما هذا حاله يكون إطنابًا لاحتوائه على ما ذكرناه من الفوائد، وإنْ حكاها بصفة التطويل العَرِىّ عن الفوائد بان يقول صَدَرَ الكتاب يومَ كذا من مكان كذا فى شهر كذا والتقى عسكرُنا وعسكرُه ، وتزاحف الجُمّان ، وتطاعن الفريقان ، وحَمِىَ القتال واشتدّ النزال مع تفاصيل كثيرة ثم قُتل عيسى بن ماهان واحتُزَّ رأسُه ونُزِع الخاتم من يده ، وتُرِك جسده طعاما للطيور والسباع والذئاب وغير ذلك من تفاصيل الوقعة ، فهذا يقال له التطويل من جهة أن تفاصيل الوقعة خاليةٌ عن الفوائد الغزيرة التى يُحتاج الى مثلها فهذه هى أمثلة الأمور الثلاثة قد فصّلناها ليحصل التميز بينها

(البحث الثانى)

(فى ذكر تقسيم الاطناب)

واعلم ان الإطناب قد يكون واقعاً فى الجملة الواحدة ، وقد يرد فى الجمل المتعددة ، فهذان القسمان نذكر ما يتعلق بكل واحدٍ منهما بمعونة الله تعالى

(القسم الأول)

ما يكون متعلقاً بالجملة الواحدة ، وتارة يردُ على جهة الحقيقة وتارةً يردُ على جهة المجاز ، فهذان وجهان

(الوجه الاول)

ما يرد من الإطناب على جهة الحقيقة وهذا كقولنا : رأيته بعينى ، وقبضته بيدى ، ووطِئْتُه بقدمى وذقتُه بلسانى الى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بما ذكرناه من الأدوات وقد يظنّ الظانّ أن التعليق بهذه الآلات انما هو لَغْوٌ لا حاجة اليه فإنّ تلك الأفعال لا تُفعل الا بها ، وليس الامرُ كما ظنّ بل هذا انما يقال فى كل شيء يعظم منالُه ويعزّ الوصول اليه ، فيؤتى بذكر هذه الادوات على جهة الاطناب دلالةً على نيله ، وأن حصوله غير متعذر ، وعلى هذا ورد قوله تعالى (ذلِكُمْ قولُكُم بأفوَاهِكِمْ) وقوله تعالى (إِذْ تَلَقَّوْنَه بألْسِنَتِكِم)لأن هذه الآيات انما وردت فى شأن الإفكِ وفى جعل الزوجات أمهات ، وفى جعل الأدْعياءِ أبناءً ، فأَعْظَمَ الله الرّدَّ والإنكار فى ذلك بقوله (وتقولون بأفواهكم) على أهل الإفك فى الرمى بفاحشة الزنا لمَنْ هى ظاهرةُ العفاف

والستر وبقوله (ذلكم قولكم بأفواهكم) على من قال لزوجته هي عليه كظهر أمّه ، أو لمن قال لمملوكه يابنيّ فبالغ في الرّدّ بهذه المقالة والنكير عليها عن أن تكون الزوجة أُمًّا والعبد ابنًا وأنّ مثل هذا يكون محالاً ، وهو أن يُجمع بين الزوجية والأُمومةِ وبين البنوّة والعبودية ، ومن هذا قوله تعالى (ما جَعَلَ اللّهُ لرجلٍ من قَلْبيْن في جوْفه) فقد علم ان القلب لا يكون الا في الجوف ولكن الغرضُ المبالغةُ في الإنكار بأن يكون للإنسان قلبان ، أكّدَ ذلك بقوله في جوفه ، ومن هذا قوله تعالى(فَخرَّ عليهمُ السَّقْفُ من فوْقِهم) فإن المعلوم من حال السقف أنه لا يكون الاّ من فوق، وإنما الغرضُ المبالغة في الترهيب والتخويف والإنكار والرّدّ كما أشار اليهِ بقوله (قدْ مَكَرَ الذين منْ قبلِهم فأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ من القواعد) يعني بالخراب والهدم فَخَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، تشديداً في الأمر ، وتهويلاً لهم ، واعظاماً لحاله وهكذا قوله تعالى في سورة الحاقّة (نَفْخَةٌ واحدةٌ ودكَّتَا دكَّةً واحدةً) فإن التاء مؤذنةٌ بالوحدة ، ولكنّه أتى بالصفة على جهة المبالغة بالإطناب في فخامة الأمر وعظَمه ، فأمّا قولُه تعالى (ومَنَاةَ الثالثةَ الأُخرَى) فليس هذا من باب الإطناب بالتأكيد ،

وانما هو من أجل مراعاة سجع الآى ، فإنها من أول السورة على الألف ، فلأجل هذا قال (الثالثة الأخرى) مراعاةً لما ذكرناه

(الوجه الثانى)

فيما يرد على جهة المجاز فى الإطناب ، وهذا كقوله تعالى (فإنها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ولكنْ تَعْمَى القُلُوب التى فى الصُّدُور) فالفائدة بذكر الصدور ههنا وإن كانت القلوبُ حاصلةً فى الصدور على جهة الإطناب بذكر المجاز ، وبيانُه هو أنه لما علم وتَحَقّق ان العَمَى على جهة الحقيقة إنما يكون فى البصر ، وهو أنْ تصاب الحدقةُ بما يذهب نورها ويُزيلُه ، واستعمالُه فى القلوب إنما يكون على جهة التجوز بالتشبيه ، فلمّا أُريد ما هو على خلاف المتعارف من نسبة العمى الى القلوب ونفيه عن الأبصار ، لا جَرَمَ احتاج الامر فيه الى زيادة تصويرٍ وتعريف ، ليتقرّر أن مكان العمى هو القلوب ، لا الأبصارُ ، ولو قال فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكنها تعمى الأبصار التى فى الصدور ، لكان مفتقراً الى ذكر الصدور ، كافتقار القلوب ، لكن القلوبُ أدخل فى الحاجة ، ولهذا

وردت الآيةُ عليه لانه قد يتجوز بلفظة الأبصار فى العقول، ولا يتجوز بالقلوب عن العقول فلأجل هذا كان ذكرُ قوله فى الصدور عقيب القلوب أحسن من ذكرها عقيب الأبصار لما ذكرناه، وهذا من لطائف علم البيان ومحاسنه

(القسم الثانى)

فى بيان ما يرد فى الجُمل المتعددة، ويرد على صور مختلفة، وكلُّها وإن اختلفت فانها ترجع الى الضابط الذى ذكرناه من قبلُ، ونُشيرُ منه ههنا الى ضروب أربعة، وفيها دلالة على غيرها بمعونة الله تعالى

(الضرب الأول) ما يكون عائداً الى النفى والإثبات، وحاصله راجعٌ الى أن يُذكر الشىء على جهة النفى، ثم يُذكر على جهة الإثبات أو بالعكس من ذلك، ولا بدّ أَن يكون فى أحدهما زيادة فائدةٍ ليست فى الآخر يؤكد ذلك المعنى المقصود، والأَّ كان تكريراً، ومثاله قوله تعالى (لا يَستأْذِنكَ الذين يؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ يُجَاهدوا بأموالهم وأنفُسِهم والله عليمٌ بالمتقين) ثم قال تعالى (إنما يستأذِنُك الذين لا يُؤْمنون بالله واليومِ الآخرِ وارْتَابَتْ قلوبُهم فهم فى

رَبِّهِم يَتَرَدَّدُون) فالآية الثانية كالآية الاولى الاَّ فى النفى والاثبات ، فإن الأولى من جهة الإثبات ، والثانية من جهة النفى ، فلا مخالفة بينهما الاَّ فيما ذكرناه ، خلا أن الثانية اختصت بمزيد فائدة ، وهى قوله (وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يتردّدون) إعلاما بحالهم فى عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأنهم فى وَجَلٍ وإشفاقٍ من تكذيبهم ، حَيَارَى فى ظُلَمِ الجهل ، لا يخلُصون الى نورٍ وهُدًى ، ولولا هذه الفائدة لكان ذلك تكريرا ولم يكن من باب الإطناب ، ومن هذا قوله تعالى (وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَه ولكن أكْثَرَ الناس لا يعْلَمُون ، يعْلَمُون ظاهراً من الحياة الدُّنْيَا وهم عن الآخرةِ هُمْ غافِلُون) فقوله : يعلمون . بعد قوله : لا يعلمون ، من الباب الذى نحنُ بصدَدِه ، ولهذا فانه نفى عنهم العلم بما خفى عنهم من تحقيق وَعْده ثم أثْبَت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا ، فكأنه قال : علموا ، وما علموا ، لأن العلم بظاهر الأمور ليس علما على الحقيقة ، وإنما العلمُ هو ما كان عِلْماً بطريق الآخرة ومؤدياً الى الجنة ، فلولا اختصاص : قوله يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لكان تكريراً لا فائدة تحتهُ ، فلأجل ما ذكرناه عُدَّ من

الإطناب لاشتماله على ما ذكرناه من الفائدة التى لخصناها

(الضرب الثانى) أن يُصَدَّر الكلامُ بذكر المعنى الواحد على الكمال والتمام، ثم يُرْدَف بذكر التشبيه على جهة الإيضاح والبيان ومثاله قول ابى عبادة البحترى

(ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما أصابَتْ مزيدا)
(فهى كالشمس بهجة والقضيب اللدن قَدًّا والرئم طَرْفًا وجيدا)

فالبيتُ الأول كان كافياً فى إفادة المدح، وبالغاً غاية الحُسْن، لأنه لمّا قال لو استزادت لما أصابت مزيداً، دخل تحته كلُّ الاشياء الحسنة، خلا أن للتشبيه مزيةً أُخرى تفيد السامع تصوّراً وتخييلاً لا تحصل من المدح المطلق، وهذا الضرب له موقع بديع فى الإطناب وهكذا ورد قوله ايضاً

تردّد فى خَلْقَىْ سُؤْدَدٍ * سماحاً مُرَجًّى وبَأْساً مهيبا
فكالسيف إن جئتَه صارخاً * وكالبحر إن جئتَه مُسْتَثيبا

فالبيت الأول دالّ على نهاية المدح، لكن البيت الثانى موضّحٌ ومُبيّنٌ لمعناه، لان البحر للسماح، والسيف للبأس المهيب، مع اختصاصه بالتشبيه الفائق الذى يكسبُ الكلام رونقاً وجمالاً، ويزيده قوة وكمالاً، وله وقعٌ فى البلاغة

وتأكيدٌ فى المعنى ، والتفرقة بين هذا الضرب وما قبله ظاهرةٌ لا خفاء بها ، فان هذا واردٌ على جهة التشبيه بعد تقدّم ما يرشد الى المعنى ويقويه ، بخلاف الضرب الأول ، فإن الإطناب فيه من جهة المفهوم المعنوىّ ، وبيانُه هو أنه لما قال فى الآية الأولى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم) أشعرَ ظاهرُها من جهة المفهوم أن غير هؤلاء بخلافهم ، وأنهم المخصوصون بالاذن ، فاذا قال بعد ذلك (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) كان هذا مؤكداً لمفهوم الآية الأولى موضحاً له ، مع ما أفاد من تلك الفائدة التى ذكرناها ، وهو اختصاصهم بالرّيب والوَجَل والتردّد والحيْرة ، وهكذا الكلام فى الآية الثانية فانه لمّا قال ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ، فنفى نفياً عاماً أشعرَ ظاهرُه أنهم غيرُ عالمين بعلم الدّين ، وحقائق علم الآخرة ، ومفهومُها أن معهم علماً من ظاهر الدنيا ، فإذا قال بعدَ ذلك (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) كان إطناباً لمفهومها مؤكّداً مع زيادة فائدة فيه ، وهو غفلتُهم عن أمور الآخرة واعراضُهم عنها ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الإطناب فى الضرب

الأول إنما يظهر من جهة ما ذكرناه من المعنى المفهوم ، وان الاطناب فى الضرب الثانى إنما يظهر من جهة اللفظ بإيراد التشبيه للإيضاح والتقرير كما أشرنا اليه

(الضرب الثالث) أن يذكر الموصوفُ فيؤْتى فى ذلك بمعانٍ متداخلة خلاَ أنّ كل واحد من تلك المعانى مُختصٌّ بخصيصةٍ لا تكون للآخر ، ومثاله قول أبى تمام يصف رجلاً أنعم عليه

مِنْ مِنّـةٍ مشهورةٍ وصَنيعةٍ
بِكْرٍ وإحسانٍ أغرَّ مُحجّلِ

فقولُه منة مشهورة ، وصنيعة بكر ، واحسان أغرّ محجل ، معانٍ متداخلة ، لأن المنة والاحسان والصنيعة كلها أمور متقاربة بعضها من بعض ، وليس ذلك من قبيل التقرير ، لأنها إنما تكون تكريراً لو اقتصر على ذكرها مطلقةً من غير صفةٍ كأنْ يقول مِنّةٍ وصنيعةٍ وإحسانٍ ولكنه وصف كلَّ واحدةٍ منها بصفة تُخالف صفةَ الآخر ، فلا جَرَمَ أخرجها ذلك عن حكم التكرير ، فقال (منة مشهورة) لكونها عظيمة الظهور لا يمكنُ كتمانها ، وقوله (صنيعة بِكْر) فوصفها بالبكارة ، أى أنّ أحداً من الخلق لا يأتى بمثلها من قبلُ

ومن بعدُ ، وقوله (وإِحسان أغرّ محجّل) فوصفه بالغُرة ليدلّ بذلك على تعداد محاسنه وكثرة فوائده ، فلمّا وصَف هذه المعانى المتداخلة الدالة على شيء واحدٍ بأوصاف متباينةٍ صار ذلك إِطناباً ولم يكن تكريراً ، وكقول أبى تمام ايضاً

ذكىٌّ سجاياه تُضيفُ ضيُوفُه
ويُرْجَى مُرجّيه ويُسْأَلُ سائلُه

فإِنّ غرضه فيما قاله ذكرُ الممدوح بالكرم وكثرةِ العطاء، خلا أنه وصفه بأوصاف متعددة ، فجعل ضيوفه تُضيف ، وراجيه يُرْجَى ، وسائله يُسئل ، وليس هذا من باب التكرير ، لأن كلّ واحدٍ منهـا دالٌّ على خلاف ما دلّ عليه الآخر لأنّ ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً فى كرم مُضيفِهِ ، وسائله يُسئل ، أى أَنه يُعطى السائلين عطاء جزْلاً يصيرون به مُعطِينَ غيرَهم ، وراجيه يرجى ، أراد أنه اذا تعلّق به رجاء راجٍ فقد ظفِرَ بنجاح حاجته وفاز بإِنجاز مطلبه ، وهذا أعظم وصف وأبلغُه

(الضرب الرابع) من الاطناب أنّ المتكلم اذا أراد الإِطناب فإِنه يستوفى معانى الغرض المقصود من رسالة ، أو خطبة ، أو تأليف كتاب ، أو قصيدة ، أو قرطاس ، أو غير

ذلك من فنون الكلام ، وهذا هو أصعبُ هذه الضروب الأربعة ، وأدقها مسلَكاً ، وأضيقها جَرياً ، لكونه مشتملاً على لطائفَ كثيرةٍ ، ويتفرع الى فنون واسعة ، تتفاضل فيها المراتب ، وتتفاوت فيها الدَّرَجُ فى أساليبِ النظم والنثر ، والتبريزُ فيه قليلٌ ، فما قلَّتْ ألفاظُه وكثُرَت معانيه فهو الايجاز ، وما كثُرَت ألفاظُه وكان فيها دلالةٌ على الفوائد فهو الإطناب ، وما كثُرت ألفاظه من غير فائدة فهو التطويل ، وما تكرّرت ألفاظه المتماثلة فهو التكرير ، وقد قررّنا هذه المعانى من قبلُ فأغنى عن إعادتها ، فهذا ما أردنا ذكره فى تقسيم الاطناب والله الموفق

﴿ البحث الثالث ﴾

(فى ذكر أمثلة الاطناب)

اعلم ان هذا النوع من علم البيان كثير المحاسن واسعُ الخطو لطائفُه بديعةٌ ، ومداخلُه دقيقة ، فلنُورِدْ أمثلته من كتاب الله تعالى ، ثم من السُّنة الشريفة ، ثم من كلام أمير المؤمنين ومن كلام البلغاء ، فهذه أنواع أربعة

(النوع الاول)

ما ورد فيه من كتاب الله تعالى فمن ذلك ما ورد فى صفة الجنّة على جهة الإيجاز قولُه تعالى (فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الاعين وأنتم فيها خالدون) فهذه نهاية الإيجاز، فإنه قد استولى على جميع اللّذات كلها من غير إشارة الى تفصيل ، وكذلك قوله تعالى (فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخفِىَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ) فهذا أيضاً دال على غاية اللّذة بأوجز عبارة وألطفها ، ومنه قوله تعالى (وإِذَا رأيْتَ ثَمَّ رأيْتَ نعيماً ومُلْكاً كَبِيراً) وقوله تعالى (تَعرِفُ فى وُجوهِهمْ نَضْرَةَ النعيمِ) الى غير ذلك من الإيجاز البالغ ، والإطنابُ كقوله تعالى (مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المتَّقُونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لَبَنٍ لمْ يَتغيَّرْ طعْمُهُ وأَنْهَار من خمْرٍ لذّةٍ للشّاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصفّى) وقوله تعالى (فى جنّةٍ عاليةٍ لَا تَسْمَعُ فيها لَاغيةً فيها عَينٌ جارِيةٌ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعةٌ وَنَمارِقُ مَصفُوفةٌ وزَرَابِىُّ مَبْثُوثةٌ) وقوله تعالى (على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتّكِئينَ عليها مُتقَابلينَ يَطُوفُ عليهمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بأَكْوَابٍ وأَبَارِيقَ وكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لا

يُصَدَّعُون عنْها ولا يُنْزَفُون وفاكهةٍ مما يتخيَّرون ولحْمِ طيْرٍ مِمّا يشتَهُون وحُورٌ عينٌ كأمثَال اللُّؤْلُؤ المكْنُون) ومن ذلك قوله تعالى (إنَّ للمتّقينَ مفازاً حَدائقَ وأعنَاباً وكواعبَ أتْراباً وكأساً دِهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذّاباً) وقوله تعالى (وجَزاهم بما صَبرُوا جنّةً وحريراً متّكِئينَ فيها على الأرائِكِ لا يروْنَ فيها شمساً ولا زمْهريراً ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلَتْ قُطوفُها تذْليلاً ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فِضّةٍ وأكْوابٍ كانت قواريرَا قواريرَ من فضّةٍ قدَّرُوها تقْديراً ويُسقَوْن فيها كأساً كان مزاجُها زنجبيلاً عيْناً فيها تُسمَّى سلْسبيلاً ويطوفُ عليهم ولْدانٌ مُخلَّدُونَ إذا رأيْتهُمْ حسبْتَهُمْ لؤلُؤاً منْثُوراً) ثم قال (عاليَهُمْ ثيابُ سنْدُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ وحُلُّوا أساورَ من فِضّةٍ وسقَاهُمْ ربُّهمْ شَراباً طَهُوراً) وقوله تعالى في سورة الرحمن فانه أوْجزَ أولا ، ثم أطْنَبَ في وصف الجنة ، فقال في الإيجاز (ولمَنْ خافَ مقامَ ربّهِ جنّتَان) ثم قال (فيهما منْ كُلِّ فاكهةٍ زوْجَان) ثم أطْنبَ بعد ذلك بقوله (متكئينَ على فُرُشٍ بَطَائنُها منْ إسْتَبْرَقٍ وجَنَى الجَنَّتَيْنِ دانٍ) ثم قال بعد ذلك (مُدْهامّتَان ، فيهما

عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) وقال فيهما عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ) وقال (فيهما فَاكِهَةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ) ثم قال (حُورٌ مقصوراتٌ فى الخِيَامِ) وقال (فيهنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) ثم قال (متّكئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) فهذه كلها أوصاف جاريةٌ على جهة الإطناب ، فأمّا الإيجاز فى صفة أهل النار فقوله تعالى (انّ المُجْرِمِين فى عَذاب جهنم خالدون لا يُفَتَّرُ عنهم وهُمْ فيه مُبْلِسُون) وقوله تعالى (إنَّ المجرمين فى ضَلَالٍ وسُعُرٍ) الى غير ذلك مما يدلّ على الهوان من جهة الإجمال ، وأمّا الإطناب فكقوله تعالى (ومَنْ خفَّتْ مَوَازِينُه فأُولَئِكَ الّذينَ خَسِرُوا أنْفسَهم فى جهنّمَ خالدُون تَلْفَحُ وجوهَهُمُ النَّارُ وهُمْ فيها كَالِحُونَ) وقوله تعالى (والّذين كفرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثيابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجُلُودُ ولَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) وهكذا القول فى الإيمان والكفر ، وصفة المؤمنين والكفّار ، فإنه قد ورد فى حقهم الإيجازُ والإطنابُ ، وهو ظاهرٌ لا يُحتاج فيه الى التكثير، فأمّا التطويل فكتابُ الله تعالى مُنزَّهٌ عنه ، لكونه تكثيراً من غير فائدة مستجدَّة ، ومثاله لو أُريد وصفُ بستانٍ يتضمن فواكهَ ، لقيل فيه : الرُّمَّانُ الذى ورقُه أخضرُ

مستطيلٌ وله قُضبانٌ لَدْنَةٌ لها شجونٌ وفنون مشتملةٌ على حَبٍّ مُدَوَّرٍ فى وسطها أعطافٌ مشحونةٌ ببنادق حُمْرٍ الى غير ذلك ، فما هذا حاله يُعَدّ من التطويل الذى لا ثمرة له ولا فائدة تحته

(النوع الثانى)

ما ورد من جهة السنة النبوية فأما الايجاز فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم : حكايةً عن الله تعالى أَعْدَدْتُ لعبادى الصالحين مالا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلْب بَشَرٍ ، بَلْهَ ما ادّخَرْتُ لهم ، وفى حديث آخر فى الجنَّة ما لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعت ولا خَطَرَ على قلب أحد الى غير ذلك من الاحاديث الواردة على جهة الاجمال ، وأمّا الإِطنابُ فكقوله (١) صلى الله عليه وسلم من لذَّذَ أخاهُ بما يشتهيه رَفَعَ اللّهُ له أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَة وكتب له أَلْفَ أَلْفِ حسنة ومحا عنه أَلْفَ أَلْفِ سيئة وأَطْعَمَهُ من ثلاث جنان ، من جنّة الفردوس ، ومن جنة الْخلْد ، ومن جنة عَدْن ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :مَنْ سَقى مؤمناً شرْبَةً سقاهُ

---

(١) هذا الحديث والذى يليه من الاحاديث الموضوعة

الله من الرحيق المختوم ، أو قال من نَهر الكوثَر ، ومن كسَا مؤمناً كساهُ الله من سُنْدُس الجنة ، ومن أطعمَ مؤمناً لقمةً أطْعَمَهُ الله من طيبات الجنة وفواكهها وقوله صلى الله عليه وسلم : فى الايمان إنهُ بضعٌ وسبعون (١) باباً أعلاهُ لا إلَهَ الا الله وأدناهُ إماطةُ الاذى عن الطريق ، فهذا وما شاكله من باب الإيجاز الرائق والاختصار الفائق لاندراج الخصال الكثيرة والشُّعَب المنتشرة تحت ما ذكرهُ فى حق الإيمان ، ومن الإطناب قولهُ صلى الله عليه وسلم : لا يكمُلُ إيمانُ العبد بالله حتى يكونَ فيه خمسُ خصال ، التوّكل على الله ، والتّفويضُ الى الله ، والتسليمُ لأمر الله ، والرّضا بقضاء الله ، والصبرُ على بلاء الله ، إنّهُ من أحَبَّ لله ، وأبْغَضَ لله ، وأعطى لله ، ومنَعَ لله فقد استكمل الإيمان ، فانظر الى ذكره تلك الخصال الخمس التي جعلها اصلاً فى كمال الإيمان كيف أردفها بما هو كالثمرة لها ، والمصْدَاق لامرها بقوله : إنه من أحب لله ، لأن كل من كمُلت فيه تلك الخصالُ فلا شك فى كون أعماله تكون لله من حبّ أو بغض أو إعطاء أو منع ، ومن الاطناب

(١) باباً صوابه شعبة

الحسن قوله صلى الله عليه وسلم : إنّ العبد لا يُكتَب فى المسلمين حتى تَسْلَمَ الناسُ من يدهِ ولسانهِ ، ولا يُعَدُّ من المؤمنين حتى يأمن أخوهُ بوَائقَه ، وجارُه بوادِرَه ، ولا ينالَ دَرَجَةَ المتقين حتى يَدَعَ مالا بأسَ بهِ حِذَاراً ما به البأس ، ومن الايجاز الرشيق قوله صلى الله عليه وسلم فى طلب الرزق : إن الرزق لَيَطْلُبُ الرجلَ كما يَطْلُبُهُ أجَلُهُ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : الرزقُ رزقان رزقٌ تَطْلُبُه ورزق يَطْلُبُكَ ، ومن الإطناب قولهُ صلى الله عليه وسلم : يابْن آدَمَ تؤتى كلَّ يومٍ برزقكَ وأنتَ تحْزَن وينْقُص كلُّ يومٍ من أجَلك وأنتَ تفرحُ تُعطَى ما يكفيكَ وتطلُبُ ما يُطْغيك ، لا من كثيرٍ تشبع ، ولا بقليلٍ تقْنَع ، فأصغ سمعك أيها الناظر الى هذا الإطناب البالغ فى الموعظة كل غاية ، والمتجاوز فى النصيحة كلّ حدّ ونهاية

(النوع الثالث)

ما ورد من كلام أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ، فممّا ورد من كلامه على جهة الايجاز قوله فى التوحيد كُلُّ ما حكاه الفهمُ ، أو تصوَّرَهُ الوَهْمُ فاللهُ تعالى بخلافه ، فهذه الكلمة على قِصَرها

وتقارُبِ أطرافها قد جمعت محاسن التنزيه لذات الله تعالى عما لا يليق بها من مشابهة الممكنات ومماثلة المحدثات ، لأن الوهم إنما يتصور ما له نظائر فى الوجود، والله تعالى ليس لذاته مماثلٌ ، ولا يُعقل له مشابه ، وكلامُه هذا دالّ على أن حقيقة ذاته ليس معلومة للبشر ، ولهذا قال : كلُّ ماحكاه الفهمُ ، يشير به الى أن العقول قاصرةٌ عن تصوّر تلك الماهية وتعقُّل أصل تيك المفهومية ، وهـذا هو المختار عندنا كما قرّرناه فى المباحث العقلية ، وإليه يُشير كلام الشيخ أبى الحسين البصرى من المعتزلة وهو الرجل فيهم ، وهو رأىُ الحذّاق من الأشعرية كأبى حامد الغزالى وابن الخطيب الرازى وغيرهم من جلّة المتكلمين ، خلافاً لطوائف من المعتزلة والزيديّة ومن الكلمات الوجيزة قوله عليه السلام : (التوحيدُ ألاّ تتوهمه والعدلُ ألاّ تتّهمه) هاتان الكلمتان قد جمعتا وحازتا علومَ التوحيد على كثرتها ، وعلومَ الحكمة على غزارتها ، بألطف عبارةٍ وأوجزها ولو لم يكن فى كلام أمير المؤمنين فى علوم التوحيد والعدل الاّ هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين فى معرفة فضله ، وإحرازه لدقيق علم البلاغة وجزله ، فضلاً عما وراءهما من بوالغ الحكم الدينية ، ونواصع الآداب الحكمية ، وقد أشرنا الى لطائف

كلامه وأوضحنا ما رزقنا الله من علوم أسراره فى شرحنا لكتاب نهج البلاغة، وإنه لكتابٌ جامعٌ للصفات الحُسنى وحائزٌ لخصال الدين والدنيا، وأمَّا الإطنابُ فهو أوسعُ ما يكون وأكثرُ فى خُطَبه وكتبه ، وما ذاك الاَّ لما تضمّنه من المعانى واشتماله على الجمّ الغفير من النكت والأسرار ، ولْنَنْقُلْ من كلامه نُكَتاً تكون فى الأيام غُرَراً وفى نُحُور الرُّوَاة دُرَراً

(النكتة الأولى)

فى التوحيد قال : أولُ الدين معرفته ، وكمالُ معرفته توحيدُه ، وكمالُ توحيده التصديقُ به ، وكمالُ التصديق به الإخلاصُ له ، وكمالُ الإخلاص له نَفْيُ الصفات عنه ، لشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف ، وشهادةِ كل موصوف انه غير الصفة ، فمَنْ وَصَفَ الله سبحانه فقد قَرَنَه ، ومَن قَرَنَه فقد ثَنَّاه ، ومن ثَنَّاه فقد جزَّأَه ، ومن جزَّأَه فقد جَهِله ، ومن أشارَ إليه فقد حَدَّه ، ومَنْ حَدَّه فقد عَدَّه ، ومن قال فِيمَ فقد ضَمَّنه ، ومن قال علامَ فقد أَخْلى منه ، فانظرْ إلى هذا التوحيد الذى لم يُسبَقْ اليه ، والى هذا الإخلاص الذى لم يُزَاحم عليه ، بل استَبَدَّ به من بين سائر الخلائق، وتميّز بالإحاطة والاستيلاء

على تلك الحقائق ، وقد أشرنا الى هذه الرموز بهذه الأحرف وكيفيةِ دلالتها على التوحيد ، والتنزيه فى كتابنا الديباج الذى أمليناه شرحاً لكلامه فليطالع من هناك ، ثم قال: أنشأ الخلقَ إنشاءً ، وابتدأه ابتداء بلا رويةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها ، ولا هُمامة نفسٍ اضطرب فيها ، فهذه نكتةٌ شريفةٌ من كلامه أشار فيها الى التوحيد ، وخلق العوالم كلها وإبداع المكوّنات

(النكتة الثانية)

فى الاشارة من كلامه الى خلق السموات : ثمَّ أنشأَ سبحانه فَتْقَ الأجْوَاءِ وشَقَّ الأرجاء وسَكَائِكَ الهواء ، فأجْرَى فيها ماءً متلاطما تيَّارُه ، متراكماً زَخَّارُه ، حمله على مَتْن الرّيح العاصفة ، والزّعْزَع القاصفة ، فأمرها بردّه ، وسلّطها على شدّه ، وقرنها إلى حدّه ، الهوى من تحتها فتيقٌ ، والماء من فوقها دَفيق ، ثم أنشَأَ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها ، وأدام مربَّها، وأعْصَف مجْراها ، وأبْعَدَ مَنْشَاها ، فأمَرَها بتصفيق الماء الزّخّار ، وإثَارَة موج البحار ، فمخضَته مخْضَ السّقاء ، وعَصَفت به عصفَها بالفضَاء ، تَرُدُّ أوله على آخره، وساجيه على

مائره ، حتى عبّ عبابُه ، ورمى بالزّبد ركامُه ، فرفعه فى هواء منفتق ، وجوّ منفهق ، فسوّى منه سبع سموات ، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً ، وعلياهن سقفاً محفوظاً ، وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها ، ولا دسار ينظمها ، ثم زيّنها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ، وقمراً منيراً ، فى فلك دائر ، وسقف سائر ، ورقيم حائر ، فهذه نبذةٌ من كلامه أشار بها الى كيفية إبداع السموات

(النكتة الثالثة)

فى صفة الأرض ودحوها على الماء قال : كبس الارض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة تلتطم أواذيُّ أمواجها ، وتصفق متقاذفات أثباجها ، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها ، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها ، وسكن هيج ارتمائه اذ وطئته بكلكلها ، وذلّ مستخذياً اذ تمعّكت عليه بكواهلها ، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً ، وفى حكمة الذّل منقاداً أسيراً ، وسكنت الارضُ مدحوّة فى لجّة تيّاره ، وردّت من نخوة بأوه واعتلائه ، وشموخ أنفه وسموّ غلوائه ، وكعمته على كظّة جريته ،

فَهَمَدَ بعد نَزَواتِهِ ، وبعد زيَفَانِ وثباته ، فسكن هَيَجُ الماء من تحت أكنافها ، وحمَلَ شواهق الجبال البُذَّخِ على أكتافها ، فهذه منه إشارة الى خلقة الارض كما ترى

(النكتة الرابعة)

فى خلق الملائكة ثم خلق سبحانه لإسكان سمواتِهِ وعمارة الصّفيح الأعلا من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته ، ومَلأَ بهم فُرُوجَ فِجَاجها ، وحَشَا بهم فتُوقَ أجْوَائِها ، و بين فَجَوَاتِ تلك الفروج زَجَلُ المسبّحين منهم فى حظائر القُدْس وسُتُرَاتِ الحُجُب ، وسُرادقاتِ المجد ، ووراءَ ذلك الرّجيجُ الذى تَسْتَكُّ منه الأسماع ، سبُحاتُ نورٍ تُرْدَعُ الأبصارُ عن بلوغها ، فتقِفُ خاسِئَةً على حدُودها ، أنشأَهم على صُوَرٍ مختلفات ، وأقدارٍ متفاوتات ، أُولى أجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلالَ عزّته ، لا يَنْتَحِلون ما ظهر فى الخلق من صنعته ، ولا يدّعون أنهم يخلقون شيئاً ممّا انفرد به ، بلْ عبادٌ مكرمونَ ، لا يسبقونَهُ بالقول وهم بأمره يعملون ، جعلهم فيما هُنَالك أهْلَ الأمانة على وحْيه ، وحَمّلهم الى المرسلين ودائعَ أمره ونهيه ، وَعصَمَهم من رَيْب الشبُهات ، فما منهم زائغٌ عن سبيل

مرضاته، وأمدّهم بفوائد المعونة ، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة ، وفتح لهم أبواباً ذُللاً الى تماجيده ، ونصب لهم مناراً واضحاً على أعلام توحيده ، لم تُثقلهم مؤْصِراتُ الآثام ، ولم ترتحلهم عُقَبُ الليالى والأيام ، ولم ترمِ الشكوكُ بنوازعها عزيمة إيمانهم ، ولم تعترك الظنونُ على معاقدِ يقينهم ، ولا قدحتْ قادحةُ الإِحَن فيما بينهم ، ولا سلبتهُم الحيْرةُ ما لاقَ من معرفته بضمائرهم ، وما سكن من عظمتهِ وهيبةِ جلالته فى أثناء صدورهم ، فلم تطمعْ فيهم الوساوسُ فتقترعَ برينها على فكرهم الى آخر كلامه فى أحوالهم وصفاتهم ، ولولا خوفُ الاطالة لنقلنا كل كلامه فى ذكر خواصّهم

(النكتة الخامسة)

فى ذكر علم الله وإحاطته بكل المعلومات قال : عالمُ السرّ من ضمائر المضمرين ، ونجْوى المُتخافِتين ، وخواطر رَجمِ الظنون ، وعُقَدِ عزيمات اليقين ، ومَسارب إِيماض الجفون وما ضمِنته أكنافُ القلوب ، وغاياتُ الغيوب ، وما أصغَت لاستراقه مَصايخُ الأسماع ، ومَصائِفُ الذّر ومشاتى الهوامّ ، ورَجْع الحنين من المُولَهات ، وهَمْسِ الأقدام ، ومُنفَتح الثمرة

من وَلائج غُلَف الآكام، ومُنْقَمَع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومُختبى البعوض بين سُوق الأشجار وألحيتها، ومَغرِز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومُتلاحمها، ودُرُور قَطْر السحاب ومتراكمها، وما تَسفي الأعاصيرُ بذيولها، وتَعفُو الأمطارُ بسيولها، وعوم نبات الأرض فى كثبان الرمال ومستقرّ ذوات الأجنحة. بذرا شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق فى دياجير الأوكار، وما أودعته الأصدافُ وحضنت عليه أمواجُ البحار، وما غشيته سُدفة ليل، وذرّ عليه شارقٌ من نهار، وما اعتقبت عليه أطباقُ الدياجير وسُبُحاتُ الأنوار، وأثرَ كلّ خطوة وحِسّ كلّ حركةٍ، ورَجْعَ كلّ كلمة، وتحريكَ كلّ شفة، ومستقرّ كلّ نسمةٍ، ومثقالَ كلّ ذرّة، وهَماهِمَ كُلّ نفسٍ هامّة، وما عليها من ثمرة شجرةٍ أو ساقِطِ ورقةٍ، أو قرار نطفةٍ، أو نُقاعة دمٍ، أو مضغةٍ، أو ناشئة خلقٍ وسُلالة، فلينظر الناظرُ ما تضمّنه كلامُه هنا من الإشارة الى كيفية الإحاطة له تعالى

بالمعلومات بألطف عبارةٍ وأرشقها ، وهذا من أعجب أماكن الاطناب وأرفع مراتبه

(النكتة السادسة)

فى تنزيه الله تعالى عن مشابهة الممكنات واستحالة الأعضا عليهِ ، قال فأشهدُ أن مَن شبَّهك بتباين أعضاء خَلْقِكَ وتلاحُمِ حقائق مفاصلهم المحتجبةِ بتدبير حكمتك لم يَعْقِدْ غَيْبُ ضميره على معرفتك ، ولم يُباشر قلبَهُ اليقينُ بأنهُ لا ندَّ لك ، فكأنه لم يسمع تَبرُّؤَ التابعين من المتبوعين اذ يقولون (تاللهِ إنْ كنّا لفى ضلالٍ مبين إِذْ نُسوّيكم بربّ العالمين) كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ونَحَلُوك حلْيَةَ المخلوقين بأوهامهم ، وجزّأُوك تجزئةَ المجسّمات بخواطرهم ، وقدّرُوك على الخِلْقَة المختلفة القُوَى بقرائح عقولهم ، فأشهدُ أنّ مَنْ ساواك بشىء من خلْقِك فقد عَدَلَ بك ، والعادلُ بك كافرٌ بما تنزلَتْ بهِ مُحْكَمُ آياتك ونطقتْ عنهُ شواهدُ حججِ بيّناتِك ، وأنك أنت الله لمْ تَتَناهَ فى العقول فتكون فى مَهَبّ فكرها مُكَيَّفًا ، ولا فى رَوِيّاتِ خواطرها محدُوداً مُصرَّفًا ، فظاهر كلامه دالٌّ على إِكْفار المشبّهة ، وقد رمزنا فى

شرحنا لكلامه هذا الى تفاصيل القول فى التشبيه وذكرنا مَن يكفُر ومن لا يكفر من المشبّهة ما خلا القولَ فى إِكفار من يكفرُ من أهل القبلة ، وحقيقة الإِكفار بالتأويل ، فقد أودعناه كتابَنا الذي أمليناه في الإِكفار وذكرنا فيه ما يكفى و يَشفى والحمد لله

(النكتة السابعة)

فى الاشارة الى كيفية خلق آدم قال فيه ثم جمع من حَزْنِ الأرض وسهلها ، وعذبها وسبَخها ، تُرْبَةً سنَّها بالماء حتى خلُصت ، ولاطها بالبَلَّة حتى لزَبَتْ ، فجبل منها صورةً ذات أحناء ووُصول ، وأعضاء وفُصول ، أجمَدها حتى استمسكتْ ، وأصلَدَها حتى صلصلَتْ ، لوقتٍ معدود ، وأمَدٍ معلوم ، ثم نفخ فيها من رُوحهِ فمثَلَتْ إنسانا ذا أذْهانٍ يُجيلُها، وفِكرٍ يتصرَّفُ بها ، وجوارِحَ يستخدمها ، وأَدَواتٍ يقلّبُها ، ومعرفةٍ يفرق بها بين الحق والباطل ، والأذواق ، والمشَامّ ، والألوان ، والأجناس ، معجوناً بطينة الأكوان المختلفة ، والأشباه المؤتلفة ، والاضداد المتعادِيَة ، والأخلاط المتباينة ، من الحرّ والبرْد ،والبلّة والجمود،والمساءة والسرُور ،واستَأْدَى الله

سبحانه الملائكةَ وديعتَــه لديهم ، وعَهْدَ وصيتهِ اليهم فى الاذعان بالسجود له ، والخشوع لتكرمته ، فقال سبحانه (اسجُدوا لآدمَ فسجَدُوا الا إبليسَ) ثم أسكنه دارا أرغَدَ فيها عيشَه ، وأقر فيها مَحِلتَّه ، فهذا كلامٌ من أخذ البلاغة بزِمَامِها وكان هو المدعوّ بصاحبها وإمامها ، لا يقصّر عن بلوغ شــأوِها ولا يصعُب عليه نَخْوَةُ بَأْوِها

(النكتة الثامنة)

فى ذكر إبليس وإغوائه لآدم قال ثم إن إبليس اعترَته الحَميّةُ ، وغلبت عليه الشِّقْوَةُ وتَعزَّز بخلقة النار ، واستَوْهَنَ خَلْقَ الصلصال ، فأعطاه الله النَّظرةَ استحقاقاً للسُّخْطَة ، واستتماماً للبليّة ، وإنجازاً للعِدَة فقال (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقتِ المعلوم) فلماَّ أسكنهُ جنَّتَه ، وحذَّرَهُ ابليس وعداوتَه ، فاغترَّه إبليسُ نَفاسةً عليه بدار المُقام ، ومُرافقةِ الأبرار ، فبَاعَ اليقينَ بشكِّه ، والعزيمةَ بوَهنِه ، واستَبْدَلَ بالجَذَلِ وَجلاً ، وبالاغترار نَدَماً ، ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ، ولقَّاهُ كلمة رَحْمتِه ووعده المردَّ الى جنته ، وأهبطه الى دار البلية وتناسُل الذرية

(النكتة التاسعة)

يذكر فيها بعثة الأنبياء قال : ثم إنه تعالى اصطفى من ذرّيته يعني آدم أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالةِ أمانتهم ، لمّا بدّل أكثرُ خلقِه عهدَ الله اليهم ، فجهلوا حقَّه ، واتخذُوا الأنداد معه واجتالهم الشياطينُ عن معرفته ، واقتطعتْهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسلَه ، وواتَرَ اليهم أنبياءه ، ليستأدُوهم ميثاقَ فطرْته ، ويذكِّرُوهم منسيَّ نعمته ، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويُثيرُوا لهم دفائن العقول ، ويُرُوهمْ آيات المقْدِرة ، من سقفٍ فوقهم مرفُوع ، ومِهادٍ تحتهم موضُوع ، ومعايشَ تحييهم ، وآجالٍ تُفنيهم ، وأوْصابٍ تُهرِمهم ، وأحداثٍ تتابَعُ عليهم ، ولم يُخلِ الله سبحانه خلْقَه من نبيّ مرسلٍ ، أو كتابٍ منزّلٍ ، أو حجةٍ لازمةٍ ، أو محجةٍ قائمة ، رسلٌ لا تقصرُ بهم قِلةُ عددهم ، ولا كثرةُ المكذّبين لهم من سابقٍ سمّيَ له مَنْ بعده ، أو غابرٍ عرّفه مَن قبلَه ، على ذلك نَسلتِ القرُونُ ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، فهذه نكتةٌ عجيبةٌ ضمّنها ما كان من بعثة الأنبياء وتبليغهم للشرائع وصَبْرهم على أداء ما حمَلوه

(النكتة العاشرة)

يذكر فيها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، واصطفاء الله له قال ثم إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لإنجاز عدَته ، واتمام نبوّته ، مأخوذا على النبيّين ميثاقُه ، مشهورةً سِمَاتُه ، كريماً ميلادُه ، وأهلُ الارض يومئذ مِلَلٌ متفرّقةٌ ، وأهواءٌ منتشرة ، وطوائفُ متشتّتة ، بين مشبِّهٍ لله بخلقه ، أو مُلحدٍ فى اسمه ، أو مشيرٍ الى غيره ، فهداهمْ به من الضلالة ، وأنْقَذَهُمْ بمكانه من الجهالة ، ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم لِقاءه ، ورَضِيَ له ما عندَه ، وأكرمه عن دار الدنيا ، ورَغِبَ به عن مُقام البلوى ، فقَبَضَهُ اليه كريما ، صلى الله عليه وعلى آله ، ثمَّ خَلَّفَ فيكم ما خَلَّفَتِ الانبياء فى أُمَمِها ، كتابَ ربّكم مُبَيِّناً حَلالَهُ ، وحرامَه ، وفضائلُه وفرائضُه وناسخُه ومنسوخه ورُخَصُه وعَزَائمه ، فهذه النكت قد جمعناها من كلامه ههنا مثالاً للإطناب ليتفطّن الناظرُ أنه لا وَادىَ من أودية البلاغة الا وقد سلكه ، ولا زمامَ من أزمّة الفصاحة الا وقد استولى عليه بفكره وملَكَهُ ، فصار أوْفرَ البلغاء فى البلاغة نصيباً وسهماً ، وأكثرهم

بها فى الإحاطة علما وفهماً ، وحُقَّ لكلامه عند ذاك أن يقال فيه إنه كُنَيْفٌ مُلِئَ عِلْماً

(النوع الرابع)

فيما ورد من كلام البلغاء فى الإطناب ، فمن ذلك ما قاله ابن الاثير فى وصف بستان : هو جَنَّةٌ ذاتُ ثمارٍ مختلفة الغرابة ، وتُرْبَةٍ مُنْجِبَةٍ وما كلُّ تُرْبَةٍ تُوصف بالنجابة ، ففيها المُشْمُش الذى يسبق غيرَه بقدومه ، ويَقْذِفُ أيدى الجانين بنُجُومه ، فهو يسمو بطيب الفرع والنِّجار ، ولو نُظِمَ فى جِيدِ الحسناء لاشْتَبه بقِلادة من نُضَار ، وله زمنُ الرَّبيع الذى هو أعدل الأزمان ، وقد شُبِّه بسنِّ الصِّبا فى الأسنان ، وفيها التفاح الذى رَقَّ جِلْدُه ، وعظُم قدُّه ، وتَوَرَّدَ خَدُّه ، وطابتْ أنفاسُه ، فلا بَانُ الوادى ولا رَنْدُه ، واذا نُظر اليه وُجِدَ منه حظُّ الشمّ والنظر ، ونسبَتُه مِنْ سُرَرِ الغزلان أَوْلى من نسبته الى منابت الشجر ، وفيها العنبُ الذى هو أكرمُ الثمار طِينَةً ، وأكثرها ألوان زينة ، وأولُ غرسٍ اغترسه نُوحٌ عليه السلام عند خروجه من السفينة ، فقُطْفُه يميل بكف قاطفه ، ويُغْرِى بالوصف لسانَ واصفه ، وفيها الرُّمانُ الذى هو طعام وشراب ،

وبه شبهت نهود الكعاب ، ومن فضله انه لا نوى له فيرمى نواه ، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ، وفيها التين الذى أقسم الله به تنويها بذكره ، واستتر آدم بورقه إذ كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأعناق ، فما يرى بها من ميل فذاك من نشوة سكره ، وقد وصف بأنه راق طعما ، ونعم جسما ، وقيل هذا كنيف ملئ شهدا ، لا كنيف ملىء علما ، وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه وشكله ، ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله ، وهو الذى فضل ذوات الأفنان بعرجونه ، ولا تماثل بينه وبين الحلواء فيقال: هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه، وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها، وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ، ولقد دخلتها فاستهوتنى حسدا ، ولم ألم صاحبها على قوله (لن تبيد هذه أبدا) . فما هذا حاله من الأوصاف يقال له إطناب ، لأن كل صفة لم تخل عن فائدة جديدة

(ومن) الأمثلة الرائقة فى الإطناب ما قاله ابن الأثير أيضا على جهة المقابلة لإيجاز كتاب طاهر بن حسين الى المأمون لما هزم عسكر عيسى ابن ماهان وقتله ، وقد ذكرنا كتابه الذ أوجز فيه الى المأمون فقال ابن الاثير مقابلا له

بالإطناب فيه ، وهو قوله : صدر الكتاب وقد نصرْنا بالفئة القليلة على الفئةِ الكثيرة،وانقلبْنا باليد الملأَى والعين القريرة، وكان انتصارُه بجَدّ أمير المؤمنين لا بجدّ نصله، والجدُّ أغنَى عن الجيش وإن كثُرَ إمْدادُ خيْله ورجله، وجِئَ برأسِ عيسى بن ماهَانَ وهو على جسدٍ غير جسَده،وليس له قدمٌ تَسْعى ولا يدٌ فيقالَ يبْطُشُ بيده ، ولقد طال وطُولُه مُؤْذِنٌ بقصَرِ شأنه، وحسدت الضباعُ الطيرَ على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه ، وأُحْضِرَ خاتمه وهو الخاتم الذى كان الأمرُ يجرى على نَقْش أسطره، وكان يرجو أن يصدّر كتابَ الفتحُ بختمه فحال ورُودُ المنية دون مَصْدره ، وكذلك البغىُ مرتعه وَبيل ، ومَصْرَعُه جليل ، وسيفُه وإن مضَى فإنه عند الضرب كليل ، وقد نطق الفألُ بأن الخاتم والرأسَ مُبشّران بالحصول على خاتمَ المُلْك ورَاسه ، وهذا الفتحُ أساسٌ لما يُستقبل بناؤه ولا يستقرُّ البناء الا على أساسه ، والعساكرُ التى كانت على أمير المؤمنين حَرْباً صارَت له سلْماً ، وأعطته البيعة عِلماً بفضله ، وليس من بايع تقليداً كمن بايع علما ، وهم الآن مصرفون تحت الأوامر ،مُمْتَحَنُون بكشف السرائر ، مُطيفون

باللواء الذى خصّه الله باستفتاح المقالد واستْيطاء المنابر ، وكما سرَتْ خَطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس ، فكذلك سرت طلائع الرُّعب قبل الطلائع فى قلوب الناس ، وليس فى البلاد ما يُغْلَق بمشيئة الله باباً ، ولا يَحسر نِقَابا ، وعلى الله تمام النعمة التى افتتحها ، وإجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التى اقترحها ، ولنكتفِ بهذا القدر من أمثلة الإطناب ففيه كفاية ، فأمّا الاطنابات الشعريّة فتشتمل عليها الدواوينُ ، ومن أراد الاطلاع على الإطناب الشعرىّ فى المدح فليطالعْ ديوان ابى الطيب المتنبى فانه يجد فيه فى الكافوريات والسيّفيات ، إطالة في الإطناب كثيرة وغيره من الدواوين كأبى تمام وأبى عُبادة البحترى

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى المبادى والافتتاحات)

اعلم أن هذا الفصل ركنٌ من أركان البلاغة ، وحقيقتهُ آئلة الى أنه ينبغى لكل من تصدّى لمقصد من المقاصد واراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالاًّ عليه ، فما هذا حالُه يجب مراعاتُه فى النظم والنثر جميعاً ،

ويستحبُّ التزامهُ فى الخُطَب والرسائل والتصانيف ، وهكذا حال التهانى والتعازى يكون مبدؤها وتصديرها بما يناسب ذلك المعنى ليكون معلوماً من أول وَهْلَة ، فحيثُ يكون المطْلعُ جاريا على ما ذكرناه فهو من الافتتاحِ الحسن ، وحيث يكون جارياً على عكسه فهو معدودٌ من القبيح ، فهذان طرفان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما

(الطرف الاول) فى ذكر الافتتاحات الرائعة ولنورد فيها أمثلة اربعة

(المثال الأول) من كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى لمّا أذنَ بالفتح على رسوله صلى الله عليه وسلم وكان هو الغاية والمنتهى بِطىّ بساط الرسالة لمّا ظهر نورُ الإِسلام . ومَدّ بجرانه على جميع الأديان ، فأنزل الله تعالى على رسوله آيةً هى مناسبةٌ لما هو فيه من إشارة الإِيمان ، وبلوغه الغاية ويذكر مننه عليه بما أظهر على يديه من ذلك فقال فيها (إنّا فتحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ليغْفِرَ لك اللهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَه عليكَ ويَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ويَنْصُرَكَ اللهُ نَصراً عزيزاً) فانظر الى هذه الآية ما اعجب ملائمتها لهذه الحالة ، وأشدّ تصريحها بالمقصود من أول وهْلَة ،

فصدّر الآية بذكر الفتح اظهارا للمنّة ، وتكملةً للنعمة ، ثم أردفه بذكر المغفرة إعظاماً لحاله ، ورفعاً من منزلته ، وتقريراً لنفسه وتسليةً لما كابَد قبله من عِظَم المشقه وشدة المِحْنَة ، ثم وجّه التعليل بالمغفرة الى الفتح ، إيذانا بأنه انما استحق الغفران لِمَا كان منه من الصغائر من أجل ما استحق على العناية فى الفتح ومكابدة شدائده ، فلأجل ذلك كان مستحقاً للأجر الأعظم الذى يكون ثوابه مكفّرا لتلك الصغائر التى صرّح بها الشرع وجوزها عليه ، (فأمّا) الزمخشرى فقد قال فى تفسيره انه ليس واردا على جهة التعليل على أحد وجهيه ، وانّما هو واردٌ على جهة التعديد لما أنعم الله عليه من غفران ذنوبه ، وإتمام نعمته عليه والهداية والنصر

(فأما) من قال ان اللام للعاقبة كالتى فى قوله تعالى (فالْتقَطه آلُ فرعونَ ليكون لهم عَدُوًّا وَحَزَناً) فانما كان ذلك من أجل ضيق العَطَن ، وعدم الوَطْأَة ورُسُوخ القَدَم فى علوم البيان ، وبُعْدهم عن الإحاطة بحقائق التشبيه والاستعارة ، فلا جَرَمَ عوّلوا على هذه التأويلات الركيكة والمعانى البادرة ، ونزولُ هذه الآية انما كان قبل الفتح بعد رجوعه من الحُدَيْبِيَة ، وبعدَ عُمْرة القضاء ، أنزلها الله تعالى عليه بشارةً له وشرحاً لصدره ،

وتسليةً على قلبه بما وعَده من النصر والفتح والهداية والإعزاز، وانما جاء بلفظ الماضى مبالغةً فيه وتوكيداً ، وكأنه لشدّة تحققه وثبوته كأنه قد مضى وتقضّى فأشبه الماضى فى تقريره ، ومن هذا قوله تعالى فى افتتاح سورة النساء(يأيُّها الناسُ اتقوا ربكم الذى خلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخلق منها زوْجَها وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً) لانه لمّا كان غرضه بيان الأحكام المشروعة فى حقهن من الطلاق ، والميراث ، وغير ذلك من الأحكام ، صدّر السورة بما يكون فيه دلالةٌ وتنبيهٌ على ذلك ، وخالف ما ذكره فى صدر سورة الحج لما ذكره فى سورة النساء حيث قال (يأيُّها الناسُ اتّقوا ربَّكم إن زَلْزَلَةَ الساعةِ شىءٌ عظيمٌ) لأنه لمّا كان غرضه ذكرَ البعث والاحتجاج عليه والنَّعْىَ على مُنْكِريه صدّره بما يلائمهُ ويناسبه من ذلك ، فافتتاحُ كلّ واحدةٍ من السورتين مخالفٌ للاخرى ، لكنه مناسبٌ لما يريد ذكرَه من كلّ واحد منهما من الأغراض والمقاصد التى ضمّنها فيهما ، فافتتاحُهما ، ملائمٌ لهما كما ترى ، ولهذا فإنّ الله تعالى لَمّا أراد شَهْرَ السيف وَأَذِنَ للرسول فى القتال وكان بينه وبين ناس من العرب عهود وإخْلافٌ صَدّرَ سورة . التّوْبَةَ . بذكر

البَراءة لمَا أراده من قَطْع تلك العهود ونبْذِها ، فافتتاحُها مناسبٌ لما يُريد ذكرَه فيها من المباينة وشَنِّ الغارات وسَلِّ السيف

(المثال الثانى) ما ورد من السنة الشريفة ، فمن ذلك ما رواه ابنُ عُمَرَ رضى الله عنه قال : كان يعلّمُنا خُطْبَة الحاجة بقوله الحمدُ لله نحمَدُه ، ونستعينُه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا مَن يَهْدِ اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادِيَ له ، وأشهدُ أن لا إله الا اللهُ وحده لا شريك له وأن محمدا عبدُه ورسولُه ، فهذه الكلمات كان يذكرها اذا أراد حاجةً من الحوائج من نكاحٍ ، أو موعظة ، او فصل قضية ، أو غير ذلك من سائر الحاجات ، فانظر الى اختياره صلى الله عليه وسلم فى افتتاح كل أمر كيف صار ملائما للمطلوب من جميع الأفعال المطلوبة ، فافتتح بالتعريف والإقرار باستحقاق الحمد لله فى كلّ حال لا يختصُّ وقتاً دون وقتٍ ، ثم أردفه بتجديد الحمد فى مستقبل الزمان وحالِه ، ولهذا وجّه الأول بالاسم ، والثانى بالفعل المضارع ، ليدلّ بالأول على الثبوت والاستقرار ، ويدل بالثانى على التجدُّد والحدوث ، ثم عقّب بذكر الاستعانة لمّا كان محتاجا اليها فى كل فعل ، وهى

الألطافُ الخفية من جهة الله تعالى ، لأن اللُّطف من الله تعالى من أجله يسهل كل عسير ، ويلين كل قاسٍ ، ثم أردفه بالاستعاذة بالله من شرور الأنفُس ، لما فيه من الضرر العظيم من أجل دُعاء النفوس الى كل شرّ ، وهي مطبوعةٌ على أنها أمّارةٌ بالسُّوء في كلّ أحوالها ، ثم عقبه بالاستعاذة من السيئات ، فانها مبعدةٌ عن الخير ، داعيةٌ الى الشر ، فمن أجل هذه المناسبة جعل هذا الدعاء ديباجةً لكل مطلوب لما اختص من الملاءمة بما يُذكر بعده

ومن ذلك افتتاحهُ صلى الله عليه وسلم في الدعاء لأبي سلَمةَ عند موته حيث قال : اللهم ارْفَعْ درجتَه في المَهْدِيّين واخلُفْهُ في عَقِبه من الغابرين ، واغفرْ لنا ولهُ يارب العالمين ، فانظر الى مناسبة هذا الافتتاح للحالة التي وقع فيها فافتتحه بذكر المُهِمّ الذي يفتقرُ اليه المدعوُّ له في تلك الحال ، من رفع الدرجة في الآخرة، ثم أردفه بذكر المُهِمّ الذي يُؤْثره المدعوُّ له من صلاح حال عَقِبه من بعده في الدنيا ، ثم ختمه بالجمع بين الداعي والمدعوّ له ، وهذا من الافتتاح البليغ الذي يَعْجِزُ عن الإتيان بمثله كلُّ بليغ ، ومَنْ أَنِسَ بالأحاديث النبوية وكان له مطالعةٌ لها فإنه يجد فيها ما يكفي ويَشفِي

(المثال الثالث) من كلام امير المؤمنين كرّم الله وجهه

وله عليه السلام من الافتتاحات الرشيقة فى خُطَبه ، ومواعظه ، وكتبه ، ما يفوق على كل كلام فمن ذلك ما ذكره بعد تلاوته (أَلْهَاكُم التَّكَاثُرُ) فإن السبب فى نزولها هو أن بنى عبد مَنَاف من قُرَيشٍ وبنِى سَهْم ، أَكثَرُوا المماراة ، أَيُّهم أَكثرُ عدَداً ، وأعظمُ جمعاً ، فكَثَرَهُم بنو عبد منافٍ ، فقال بنو سهم : انّ البَغْىَ أهلَكَنا فى الجاهليّةِ فعَادُّونَا بالأَحياء والاموات فكَثَرَهُم بنُو سهم ، فنزلت الآيةُ ذمًّا لهم على ذلك فقال عليه السلام فى معنى ذلك : يامراماً ما أبْعَدَه ، وزَوْراً ما أغفلَه ، وخَطَراً ما أفْظَعَه ، لقد استَخْلَوْا منهم أَىَّ مُذَكِّرٍ ، وتَنَاوَشُوهم من مكان بعيد بِمَصَارِع آبائهم يفخَرون ، أم بعَدِيد الهَلْكَى يتكاثرون ؟ فتأمَّلْ هذا الافتتاح، ما أجْمَعَه للمقصود وأشدّ ملائمَتَه لمراد الآية ، مع الاختصار البالغ والإيجاز البديع الذى يزيد تفصيلُه من بَعْدُ فى أثناء الخطبة

ومن ذلك ما ذكره عند تلاوته (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله) وما برح لله، عَزّتْ آلاؤه فى البُرْهةِ بعد البُرْهَةِ ، وفى أزمان الفَتَرَاتِ عبادٌ نَاجَاهم فى فِكَرِهم

وكلَّمَهُم فى ذاتِ عُقولهم ، فاستَصبَحُوا بنُور يقَظَةٍ فى الأسماع والأبصار والأفئدة ، يُذَكِّرُون بأيّام الله ، ويُخَوِّفُون مقَامَه ، بمنزلة الأدلّة فى فَلَوات القلوب ، مَنْ أخذ القصد حَمدُوا اليه طريقَه وبشَّروه بالنجاة ، ومَن أخذ يميناً وشمالاً ذَمُّوا اليه الطريقَ ، وحذّروه من الهَلَكة ، وكانوا كذلك مصابيحَ تلك الظُلمات ، وأدلّة تلك الشُّبُهات

ومن ذلك ما ذكره عند تلاوته قوله تعالى (يأَيُّها الإنسانُ مَا غرَّكَ بربّك الكريمِ) أدْحَضُ مسئولٍ حُجّةً ، وأقْطَعُ مُغْتَرٍّ معذرةً ، لقد أبرَحَ جهالةً بنفسه ، يأيها الانسانُ ما جرَّأَكَ على ذنبك ، وما غرّك بربك ، وما آنسَكَ بهلَكَةِ نفسِك ، أَمَا مِنْ دائِك بلُول ، أليس من نَوْمَتِك يقَظَة ، أما تَرْحَمُ مِن نفسِك ما ترحمُ من غيرك ، فانظر أيها المتأمّل الى هذه المطالع فى الوعْظ والزجْر ، وهذه الافتتاحات بمعانى هذه الآى كيف طَبَّقَ مفاصلَها ولم يخالفْ مَجْراها ، ولا أخَذَ فى غير طريقها ، وأتى بما يلائمُ معناها ، ويوافق مَجْراها ، ويحقّق مَغْزاها بالكلام الذى تَبهَرُ القرائحَ فصاحتُه ، وتُدهش العقولَ جزالتهُ وبلاغتُه ، ولله درّ أمير المؤمنين لقد فاق فى كل خصاله ،

ونكص كلُّ بليغ أن يحذُوَ على مثاله ، خاصة فيما يتعلق بالخطب فى التوحيد فانها افتتاحات ملائمة للمقصود أشدّ الملائمة

(المثال الرابع)

ما ورد من كلام البلغاء فى ذلك ، وأحسنُ ما قيل فى الافتتاح ما قاله أَبو تمام فى قصيدته التى امتدح بها المعتصمَ عند فتحه لمدينة عَمُّورِيّة ، وقد كان أهلُ التنجيم زعموا أنها لا تُفتح عليه فى ذلك الوقت ، وأفاضَ الناسُ فى ذلك حتى شاع الأمرُ وصار أُحْدُوثَةً بين الخلق ، فلما فتحت عليه ، بَنَى أبو تمام مَطْلَع القصيدة على هذا المعنى مُكَذِّباً لهم فيما قالوه ، ومادحاً للمعتصم فى شدة البأسِ وإعراضه عن التطير بالنجوم فقال

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب
فى حدّه الحدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللعب
بِيضُ الصَّفَائح لا سودُ الصحائفِ فى
مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقال معرضاً باهل النجوم وانه لا عبرة بما قالوه فى ذلك

والعلم فى شُعَب الارماح لامعةً
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الروايةُ أمْ أين النجوم وما
صَاغُوه من زُخْرفٍ فيها ومِن كَذِب
تَخَرُّصاً وأَقَاويلا مُلفَّقَةً
ليستْ بنَبْعٍ اذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

فهذا المطلع من أجود ما يأتى فى هذا المعنى ومن مستظرفاته ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبي فى قصيدة يمدح بها كافوار وكان جرت بينه وبين سيّده سيف الدولة وحشةٌ فقال فى ذلك

حَسَمَ الصلحُ ما اشتَهتْه الأعادى
وأذاعَتْهُ أَلْسُنُ الحسَّادِ

فهذا وما شاكله من بديع الافتتاحات ونادرها لمَا فيه من إِفادة الغرض المطلوب من أول وهلة ، ومن جيّد ما يُذْكر في المطالع الحسنَة ما حكاه ابو العباس المبرّد أن هَرونَ الرّشيد غزَا يعفُورَ ملك الروم وكان نصرانيا نخضَع له وبَذَل الجزْية ، فلمّا عاد هرونُ استقرَّ بمدينة الرَّقّةِ ، وسقطَ الثلجُ ،

نقَضَ يَعفُور الذمة والعهد فلم يَجْسَرْ أحدٌ على إعلام هرون لأجل هيبته فى صدور الناس ، وبذل يحيي بن خالد للشعراء الأموال النفيسة على أن يقولوا أشعاراً فى إعلامه ، فكلُّهم أشفق من لقائه بمثل ذلك الاَّ شاعراً من أهل جُدّة يكنى أبا محمَّدٍ وكان مُغْلقاً فنظم قصيدةً وأنشدها الرشيدَ مُضَمَّنةً لهذا المعنى ، قال فيها

نقَضَ الذى أعطيتَه يعفُورُ
فعليـهِ دَائرةُ البَوَارِ تَدُورُ
أبشرْ أمير المؤمنـين فإنّه
فَتْحٌ أتاكَ به الاله كبيرُ
يَعفُور إنّكَ حينَ تَغْدِرُ إنْ نَأى
عنْكَ الإمام فجاهلٌ مَغْرُورُ
أظَنَنْتَ حين غدَرْتَ أنَّكَ مُفْلتٌ
هَبِلَتْكَ أمُّكَ ما ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبياتُ الى الرشيد قال أوقد فَعَلَ ، ثم غزاه فأخذه وفتح مدينته ، ومن غريب الافتتاح وعجيبه ما قاله المتنبي فى سيف الدولة وقد كان ابن الشَّمَقْمَق أقسم ليقتُلنَّه

كِفَاحاً ، فلما التقى به لم يُطق ذلك وولّى هارباً ، فقال فيه

عقبَى اليمين على عُقْبَى الوَغى نَدَمُ
ماذا يَزيدُكَ فى إقدامك القسمُ

وفى اليمين على ما أَنْتَ واعدُه
ما دَلَّ أنَّك فى الميعاد مُتَّهَمُ

ومن ذلك ما قاله أبو تمام يمدح المعتصم فيها

الحقُّ أبلَجُ والسيوفُ عَوَارٍ
فحَذَارِ من أَسَدِ العَرِينِ حذارِ

وهذه القصيدة من لطائف قصائده وعجائبها ، ومطلعُها يناسب ما ذكره فيها من ثنائه عليه وظفره ببابَكَ الخُرَّمِي.

ومن ذلك ما قاله السُّلَمِيّ فى مطلع قصيدة له قال فيها

قَصرٌ عليه تحيةٌ وسَلامُ
خلَعَتْ عليه جمالَها الأَيَّامُ

وسئل بعضهم عن أحذقَ الشعراء ، فقال مَنْ أجاد الابتداءَ والمَطْلَع ، وهذا يدلّك على أن لهما موقعا عظيما فى الفصاحة والبلاغة ، فهذا ما أردنا ذكره فى الافتتاحات الحسنة

(الطرف الثانى)

(فى ذكر الافتتاحات المستقبحة)

اعلم أنه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى السنة النبوية ولا فى كلام أمير المؤمنين شىء من الافتتاحات المستكرهة فنوردَه ، وما ذاك الاّ من اختصاصها بأرفع محلّ فى البلاغة وبلوغها فى أعلا مراتبها ، وإنما ورد ذلك فى كلام البلغاء ونحن نُورد ما استُكْرِه منه وكان مستقبحاً . نعم القرآنُ وان كان مستحسناً فى كل حالة لكنه قد يُكْرَهُ ذكر الآيات المشعره بالموت عند عروض الأفراح ، وهذا كمن يستفتح بقوله تعالى (كلُّ نفسٍ ذائقة الموت) عند نكاح أو غير ذلك من الافراح وكمن يستفتح فى قدوم تجارة له (يومَ يُحْمَى عليها فى نار جهنم فتُكْوَى بها) الآيةَ الى غير ذلك من الآيات الدالة على العذاب ووقوع الوعيد الشديد ، فما جرى هذا المجرى فإنه مستكرَهٌ تلاوتُه فى هذه الاحوال ، لما فيه من قبح التفاؤل فلا يصلح ذكرُه ، وانمّا يُذكر فى الافراح الآياتُ الدالّة على السرور كقوله تعالى (يُبَشِّرُهمْ ربُّهم برحمةٍ منه ورضوان) الى غير ذلك من الآيات الدالة على نعيم أهل الجنة وسرورهم ،

وهكذا القول فى كتب التهانى والتعازى ، فإنهُ يجب ان يكون افتتاحُها ملائماً لمقصودها ومطلوبها من الآيات والأخبار ، ولنرجع الى أمثلة المطالع والافتتاحات السيئة ، ويُحكى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان وأُعْجِبَ به جمع أهله واصحابه فيه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم فما رأى الناسُ أحسن من ذلك اليوم واستأذنه ابراهيم ابن إسحق الموصلىّ فى الإنشاد فأذن له ، فأنشده قصيدة أجاد فيها كل الإجادة خلا أنه افتتحها بافتتاح قبيح لا يلائم ما هو فيه فابتدأها بتعفية الديار و بلائها فقال

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلاَ ومَحَاكِ يا لَيْتَ شعرى ما الذى أَبْلاَكِ

فتغامز الناس به وتطيّر به المعتصم وعجبوا من غفلة إبراهيم عن مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول مخالطته للملوك ، فأقاموا أياماً وانصرفوا فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس ، وخَرِبَ القصر بعد ذلك ، وما كان أخلق هذا المقام ببيت السلمى الذى حكيناه عنه من قبل الذى مطلعه (قصرٌ عليه تحية وسلام) فانظر ما بين هذين الافتتاحين ، وكم بين المطلعين ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس

يا دار ما فعلَتْ بك الأيامُ
لم تَبق فيك بَشاشة تُستَامُ

وهذه القصيدة هى من محاسن شعره وغرائبه ، خلا أنه أساء فيها الافتتاح والمطلع ، أنشأها ممتدحاً بها الامينَ ابن هَرون ، وتعفيةُ الديارِ ودُثُورها مما تُكْرَه مقابلةُ الخلفاء والملوك به ، لما فيه من الطِّيَرَة وقبح الفأل ، ومن الافتتاحات المكروهة ما قاله البحترى فى قصيدة أنشأها مدحاً ، فأذهب رُوحَها بهذا الافتتاح السّىء ، ومطلع هـذا الافتتاح بأن يكون مَرثيَةً أحقّ من أن يكون مديحاً قال

(فُؤَادٌ ملاه الحزْنُ حتى تصدَّعا)

فمثلُ هذا يُتَطَيَّر به وتَنْبُو عنـه الأسماع ، ومن قبيح الافتتاح وشنيعه ما قاله ذو الرمة

(ما بالُ عَيْنِكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ)

فما هذا حالُه لا خفاء بقبحه اذْ كان موجّهاً للمدح ، ولمـا أنشد الأخطلُ عبدَ الملك بن مَرْوان قصيدته التى مطلعُها (خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا منكَ أَوْ بَكَرُوا) فقال له عبدُ الملك · بل . منك فغيَّره ذُو الرُّمة فقال فيه (خَفَّ القطين فراحُوا اليومَ أو بكروا) ومن قبيحه ما قاله البحترى

إنَّ للبَيْنِ مِنَّةً لا تُؤَدَّى * وبداً فى تُماضِرِ بيضاءَ

فما هذا حالهُ أعنى ذكر النساء بأسمائهن مما يثقُل على اللسان ، فإيرادُه فى الغزل مما يُشَوِّه رقتَه ، ويحُطُّ من خِفتِه ، وانما يُستحسن من الغزل بأسماء النساء مَن كان خفيفاً على اللسان ، كأُمَيْم ، وسُعاد ، وقد عِيبَ على الأخطل أيضاً تغزُّله بقَذُور ، لما فيها من الثقل فى المنطق ، فما هذا حالهُ ينبغى تجنُّبُه فى الأشعار ، فقد عرفتَ بما ذكرناه ما تجب مراعاته فى الافتتاحات والمطلع وما يجب تجنُّبُه فى ذلك منها

﴿ الفصل الثالث ﴾

(فى ذكر الاستدراجات)

الاستدراجُ ، استفعالٌ من قولهم : استدرجته الى كذا اذا نزّلته درجةً درجةً حتى تستدعيه اليك وينقادَ لما قلتَه من ذلك ، قال الله تعالى (سنستَدْرِجُهم من حيثُ لا يعلمونَ) فالاستدراجُ لهم انما هو باعطاء الصحة والنعمة والإمهال ليزدادوا فى الكفر والفسوق ، ، وهذا اللقبُ إنما يطلق على بعض أساليبِ الكلام ، وهو ما يكون موضوعاً لتقريب المخاطب والتلطف به والاحتيال عليه بالإذعان الى المقصود

منه ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة ، كما يحتال على خَصْمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات ، والانتماء اليه بفنون الإفحامات ، ليكون مُسْرِعاً الى قبول المسئلة والعمل عليها ، وكَمَنْ يتلَطّف فى اقتناص الصيد فإنه يعمل فى الحبالة كلّ حيلة ليكون ذلك سبيلاً الى ما يقصده من الاصطياد ، فهكذا ما نحنُ فيه ، اذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بإيراد ألطف القول وأَحسنه ، فما هذا حالهُ من الكلام يقال له الاستدراجُ ، ولنضرب له أمثلةً بمعونة الله تعالى

(المثال الأول)

من كتاب الله تعالى (وقالَ رجلٌ مؤْمنٌ منْ آلِ فرعونَ يَكتُمُ إِيمَانَهُ أتقتُلُون رجلاً أن يقولَ رَبّيَ اللهُ وقدْ جاءكُمْ بالبيّنات من رَبّكُمْ فإنْ يكُ كَاذِبًا فعلَيْهِ كَذِبُه وإِنْ يكُ صادقًا يُصِبْكُم بعضُ الذى يَعِدُكمُ إنّ الله لا يهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كذّابٌ) فانظر الى حسن مأْخذ هذا الكلام ، وما تضمّنه من النزول فى الملاطفة ، فصدّر الكلام بالإنكار عليهم فى قتله واستقباحه ، لأمرين : أمّا أوّلاً فلأَنه قائلٌ

بالتوحيد لله تعالى ، وأما ثانيا فلأنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحة فى هدايتكم الى الخير ، فمَن هذه حالُه كيف يُقْدَم على قتله ، هذا مما لا يتّسع له العقل ولا يقبلَه ، ثم أخذ بعد ذلك فى الاحتجاج عليهم على جهة التقسيم فقال : ليس يخلو حاله إمَّا أن يكون كاذبا فضرُّ كذِبه يعود عليه ، وأنتم خالصون عنه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إنْ تعرضتم لقتله ، وفى سياق هذا الكلام من الملاطفة وحسن الادب وكمال الإنصاف ما يربو على كلّ غاية ، وبيانه من أوجه : أمّا أوّلاً فلأنه صدر الكلام بكونه كاذباً على جهة التقدير ملاطفة واستنزالاً للخصم عن نَخْوَة المكابرة ودعاء له الى الإذعان والانقياد للحق ، وقدّمه على كونه صادقاً دلالة على كونه صادقاً دلالة على ذلك ، وأمّا ثانياً فلأنه فرضَ صدْقَه على جهة التقدير مع كونه مقطوعاً بصدقه ، تقريباً للخصم وتسليماً لما يدّعيه من ذلك ، وهضماً لجانب الرسول زيادة فى الانصاف ومبالغة فيه ، وأمَّا ثالثاً فانه أردفه بقوله يصبكم بعض الذى يعدكم ، وإن كان التحقيق أنه يُصيبهم كلُّ ما يعِدُهم به لا محالة ، من أجل الملاطفة ايضاً ، وأمّا رابعاً فإنه أتى (بإنْ) للشرط ، وهى موضوعة للأمور المشكوك فيها ، ليدلّ

بذلك على أنه غير مقطوع بما يقوله على جهة الفَرْض ، وإذعاناً للخصم على التقدير لا لإرادة هضْمه لحقّه وأنه غير مُعطٍ له ما يستحق من التعظيم ، وأما خامساً فقوله تعالى فى آخر الآية . انّ الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، إنما أتى به على التلطّف والإنصاف مَخَافةَ أنْ يبعُدوا عن الهداية ومحاذرةً عن نِفَارهم عن طريق الصواب فرْضاً وتقديراً ، وإلاّ فلو كان مسرفاً كذاباً ، لما هداه الله الى النبوّة ، ولما اعطاه اياها ، وفى هذا الكلام من الاستدراج للخصم وتقريبه وإدْنائه الى الحق ما لا يخفى على أحد من الأكْياس ، وقد تضمن من اللطائف ما لا سبيل الى جحده ، ومن هذا قوله تعالى فى قصّة خليله إبراهيم صلوات الله عليه فى خطابه لأبيه (واُذْكُرْ فى الكتاب ابراهيم إنّه كان صِدّيقاً نبيًّا إذْ قال لأبيهِ يا أبَتِ لِمَ تعبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِى عنْكَ شيْئاً يَا أَبَتِ إنّى قد جاءَنِى من العِلْم ما لم يأْتِكَ فاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا يا أَبت لا تعبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ للرحْمَنِ عَصيًّا يا أبَتِ إنّى أَخَافُ أنْ يَمسَّكَ عذابٌ من الرحْمَنِ فتكونَ للشيطانِ وَلِيًّا) فهذا كلامٌ يُهزُّ الأعطاف

ويأخذ بمجامع القلوب فى الاستدراج والإذغان والانقياد بألطف العبارات وأرشقها ، وهو مشتمل على حسن الملاطفة من أوجهُ : أمّا أولاً فلان إبراهيم صلوات الله عليه لمّا أراد هدايةَ أبيه الى الخير وإنقاذَه مما هو متورّطٌ فيه من الكفر والضلال الذى خالفَ فيه العقلَ ، ساق معه الكلامَ على أحسن هيئة ، ورتّبه على أعجب ترتيب ، من حسن الملاطفة والاستدراج والرفق فى الخَصْمة والحِجَاج ، والأدب العالى وحُسْن الخُلُق الحميد ، وذلك انهُ بدأ بطلب الباعث له على عبادة الأوثان والأصنام ، ليتوصل بذلك الى قطعه وإفْحَامه ، ثم إنه تكايَسَ معه بأنْ عرَّضَ اليه بأنّ من لا يسمعُ ولا يبصرُ لا يُغنى شيئاً من الأشياء لا يكون حقيقاً بالعبادة ، وأن مَن كان حيًّا سميعاً بصيراً مقتدراً على الإثابة والعقاب ، متمكناً من العطاء والإنعام والتفضّل ، من الملائكة وسائر الانبياء من جملة الخلق فإنه لا يستحق العبادة ويُستَسْخَفُ عقلُ من عبدَه ، فكيف مَن هذه حالُه فى عدم الحياة والسمع والبصر من جملة الجمادات والأحجار التى لا حرَاكَ لها ولا حياة بها ، وأمّا ثانياً فلأنه دعاه الى التِماس الهداية من جهته على جهة التنبيه والرفق به وسلوك جانب التواضع ، فلم يخاطبْ أباه

بالجهل عما هو يدعوه اليه ، ولا وَصَفَ نفسَه بالاطّلاع على كُنْه الحقائق ، والاختصاص بالعلم الفائق ، ولـكنّه قال : معَى لطائفُ من العلم وبعضٌ منه ، وذلك هو علم الدّلالة على سلوك طريق الهداية ، فاتبعْنى أُنَجّكَ مما أنت فيه ، وقال له ، أهْدِكَ صراطاً سويا ، ولم يقل أُنجيك من وَرْطة الـكفر وأُنقِذَكَ من عمَاءِ الحَيْرة ، تأدُّباً منه ، واعتصاماً عن مبادَاتِه بقَبيح كُفرِه ، وتسامُحاً عن ذكر ما يَغيظه ، وأمّا ثالثا فلأنه ثبَّطَه عما كان عليه ونهاه عنه ، فقال إن الشيطان الذى عصى ربَّك وكان عدوًّا لك ولأبيك آدم ، هو الذى أوقعك فى هذه الحبائل ، وورَّطك فى هذه الوُرَط وألقاك فى بحر الضلالة ، وإنما خصّ إبراهيمُ ذكر معصية الشيطان لله تعالى فى مخالفته لأمره واستكباره ، ولم يذكر عداوتَه لآدم وحوّاء ، وما ذاك الاّ من أجل إمعانه فى نصيحته فذكر له ما هو الأصلُ تحذيراً له عن ذلك وعن مواقعته ، وأمّا رابعا فلأنه خوّفه من سُوء العاقبة بالعذاب السّرْمَدىّ ، ثم إنه لم يصرّح له بمماسّة العذاب له إكباراً له ، وإعظاماً لحرمة الأبوة ، ولـكنه أتى بما يشعر بالشـك فى ذلك تأدباً له فقال له (إنّى

أَخَافُ أَنْ يَمسَّكَ عذابٌ من الرحمَنِ) ثم إِنه نكّر العذاب تحاشياً عن ان يكون هناك عذابٌ معهود يخاف منه ، كأنه قال وما يؤمنك إِنْ بقيت على الكفر ان تستحق عذاباً عظيما عليه ، وأمّا خامسا فلأنه صدّر كل نصيحة من هذه النصائح بذكر الأبوة ، توسّلا اليه بحنو الأُبُوّة واستعطافا له برفق الرَّحِمِيَّة، ليكون ذلك أسرع الى الانقياد ، وأدعى الى مفارقة ما هو عليه من الجحود والعناد ، فلمّا سمع كلامَه هذا وتفطّن لما دعاه اليه ، أقبل عليه بفظاظة الكفر، وجلافة الجهل ، وغِلَظ العناد ، فناداه باسمه ولم يقل يا بُنَيّ كما قال إِبراهيم ، يا أبتِ ، إِعراضاً عن مقالته وإِصْرارا على ما هو فيه ، ثم إِنه قدّم خبر المبتدا بقوله (أراغبٌ أنْت) اهتماما بالإِنكار وتماديا فى المبالغة فى التعجب عن أن يكون من ابراهيم مثل هذا ، فانظرْ ما بين الخطابين من التفاوت فى الرقة والرحمة وحسن الاستدراج ، (فلله دَرّ الانبياء) فما أسْجَحَ خلائقهم ، وأرقّ شمائلهم ، وفى القرآن سعةٌ من هذا، ومملوءٌ من حسن الحِجَاج والملاطفة ، خاصّة لمنكرى المَعَاد الأُخروى ، وعبادى الاوثان والاصنام ، فان الله تعالى نَعى عليهم فِعالهم ، وسجّل عليهم ، فانظر الى حِجَاجِهِ لمنكرى

البعث بقوله (وضَرَبَ لنَا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه) كيف أفحمهم بالإلزامات ، وإلى حجاجه لعبّاد الاصنام بقوله (انّ الذين تَدْعُون من دون اللهِ لنْ يَخْلُقوا ذُبَاباً ولو اجْتَمَعوا لَهُ) الى آخر الآية ولولا أنه يُخرجنا عن المقصد الذى تصدّينا له لذَكَرْنَا فيه أمثلة رائقة ونبّهنا فيه على أسرار بديعة

(المثال الثانى)

من السُّنّة الشريفة ، ولا شكّ أن له صلى الله عليه مع الكفار من عبَدة الأوثان والاصنام وغيرهم من أهل الكتب كاليهود والنصارى ملاطفةً فى حسن الاستدراج ولينِ العَرِيكَةِ ، والتهالكِ فى دعائهم الى الدين ، والإمْعان فى الانقياد له ، شيءٌ كثيرٌ لا يُحصر عدده ، ولا يتجاوز أمَدُه ، فمن ذلك ما حكاه ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحق : أن النبي صلى الله عليه كتب الى أحْبَار اليهود فقال : بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، والمصدِّق لما جاء به موسى ، أَلا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم ، محمدٌ رسولُ اللهِ والَّذِين معه أشِدَّاء على الكفّارِ رُحَمَاء بينهم تَرَاهُمْ

رُكعاً سُجَّداً يبتغُون فضلاً من الله ورضْواناً سيماهُمْ فِى وجوههم من أثَرِ السُّجُود ذلكَ مَثَلُهم فى التوراة ومَثَلُهمْ فى الإنجيل كزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاستَغْلَظَ فاستَوَى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بهمُ الكفَّارَ وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ مِنْهُمْ مغفرةً وأجراً عظيماً ، وإنّى أنشُدكم بالله ، وأنشُدكم بما أنزل عليكم ، وأنشُدكم بالذى أطْعَمَ مَن كان قبلَكم من أسْبَاطِكم ، المَنَّ والسَّلوى ، وأنشُدكم بالذى أَيْبَسَ البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعَمَلِه ، إلا أخبرتمونا : هلْ تجدُون فيما أنْزل عليكم أن تُؤمنوا بمحمّد ، وإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كُرْهَ عليكم قد تبيّن الرّشْدُ من الغىّ ، فأدعوكم الى الله والى نبيّه ، فلينظر الناظرُ ما اشتمل عليه هذا الكتاب من لطيف المحاورة وحسن الاستدراج المُزِيلِ للأحقاد والضغائن ، والمؤثّر فى إزالة السخائم عن القلوب ، وذلك من أوجه ، أمّا أولاً فلانه صدّر كتابه بقوله صاحب موسى وأخيه (١) يعنى هارون ،

(١) كذا فسر . والظاهر ان المراد بأخيه • هو النبي صلى الله عليه سلم • ويدلك على هذا قوله الآتى صاحباً لنبيهم وأخاً له

وإنما فعل ذلك إزالةً للوحشة عنهم ، وتقريراً لخواطرهم ، وإيناساً لقلوبهم عن نفارها عنه بكونه صاحباً لنبيهم وأخاً له ومصدّقاً لما جاء به موسى ، كلُّ ذلك انما يفعله على جهة الملاطفة ليستدرجهم الى تصديقه بالمحاورة اللطيفة . والخطابات المؤنسة ، وأمّا ثانياً فلأنه قال : يا معشر أهل التوراة ، تشريفاً لهم ورفعاً لمكانهم ، حيث صاروا مختصّين بكتاب الله تعالى من بين سائر الخلق ، وأما ثالثاً فهو أنه احتجّ عليهم بما لا يجدون سبيلاً الى إنكاره من كونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، ولم يقل لهم انظروا فى معجزتى ، ولكنه وكَلَهُم الى معرفته بما يعرفونه ، رِفقاً بهم ومناصحةً وتقريراً لما هم عليه من ذلك ، ثم إنه تلا وصْفه فى التوراة ليُذْعنوا بالتصديق على سهولة وقُرْب ، وأمّا رابعاً فلأنه قد أورد ذكر وصْفه ووصف أصحابه فى الإنجيل ليُعرّفهم بذلك ، إيناساً لهم وتقريبا ، وأمّا خامساً فلأنه ذكَرَ المناشدة ، تذكيراً لهم بالآلاء العظيمة ، والنعم المترادفة . بإكرامهم ، فأوّلُها المِنّةُ عليهم بإنزال التوراة وما شرع لهم فيها من الشرائع ، وثانيها بإطعامهم المَنّ والسّلْوَى ، وثالثها فَلْقُ البحرِ وشَقُّهُ حتى جازوا فيه وأنجاهم من عدوهم بذلك ، فانظر الى ما اشتمل عليه هذا

الكتاب من الاستدراج الحسَن ، واللُّطْف المستحسن ، والبَسْط الذى يؤنس القلوب عن نِفَارها ، ويَكسِبُها الإقرار بعد إنكارها ، ولو قال فى كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الناسخ لشريعة موسى بن عمران ، والماحِي لآثارها ، والطامس لأعلامها ، الى معشر اليهود الذين خالفوا وبدّلوا أحكام التوراة وكذّبوا بما جاء من عند الله . وخانُوا عهد الله ، واشترَوْا بآياته ثمناً قليلا ، أنشُدُكم بالله الذى مَسَخكم قرَدَةً ، وأنزل بكم نكالَه ، وضرب عليكم الذّلةَ والمسكنة ، وأهانكم بالتزام الجِزْية ، وأقعدكم مقاعدَ الهوان ، حيث جحدتم نبوّتى ، وأنتم تعرفون بها حقيقةً . لا لَبْسَ فيها ، كما تعرفون أبناءكم ، لكان تنفيرا ، ولم يكن استدراجا ، ولصار لَجَاجاً ، أحقّ من أن يكون تقريباً وحِجَاجاً ، ثم أقول لقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكانٍ من الملاطفة وحسْن الحِجَاج قبلَ الهجرة بالمشركين من أهل مكة وغيرهم من سائر القبائل ثم ما كان منه من الملاطفة بعد الهجرة باليهود بنى قُرَيْظَةَ وبَنى النَّضِير حتّى هلكَ مَنْ هلك عن بينةٍ وحَىّ مَن حَىَّ

عن بينة

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، ولقد كان له عليه السلام من الاستدراجات الرائقة خاصةً مع معاوية ، وفرق الخوارج وغيرهم ممن نكص عن الإسلام على عقبيه ، ولغيرهم من أصحابه من العنايات الحسنة ما يشفى غليل الصدور ، ويوضح ملتبسات الامور ، فمن ذلك ما ذكره خطاباً لمعاوية فاتّق الله يا معاويةُ فى نفسك ، وجاذِب الشيطانَ قيادَك ، فإنّ الدنيا منقطعةٌ عنكَ ،والآخرةَ قريبةٌ منكَ ، فكيف أنت إذا انكشف عنك جلابيبُ ما أنت فيه من دنيا قد بهجت بزينتها ، وخدعتْ بلذّتها ، دعتْكَ فأجبتها ، وقادتْك فاتّبعتها ، وأمرتْك فأطعتَها ، وإنه يُوشِكُ أن يقفَك واقفٌ على مالا يُنجيك منه منْجٍ ، فاقعَس عن هذا الأمْر ، وخُذْ أهبَةَ الحساب ، وشمّر لما نزل بك ، ولا تمكّن الغُواةَ من سمعك ، فهذا وما شاكله استدراجٌ وحسنُ ملاطفة ، وله عليه السلام فى غير هذا الموضع كلامٌ فيه خشونةٌ عظيمة ، ومن ذلك ما قاله لعبد الله بن عباس عند استخلافه إيّاه على البصرة : سَعِ الناسَ بوجْهكَ ومَجلِسك وحِلْمكَ ، وإيّاكَ والغضبَ فإنه طِيرَةٌ من الشيطان ،

واعلم أنّ ما قرّبك من الله بَعّدك من الشيطان والنار ، وما باعدك من الله يقرّبك من النار والسلام ، ومن ذلك يخاطب به معاوية ، مناصحةً له وتقريباً له من الحق : أمّا بعدُ فإن الله جعل الدنيا لما بعدها ، وابْتَلَى فيها أهلها ليَعْلم أيُّهم أحسنُ عملاً ، ولسنا للدنيا خُلقنا ، ولا للسّعى فيها أُمرنا ، وإنما وُضعنا فيها لنُبْتَلَى بها ، وقد ابتلانى اللهُ بكَ وابْتَلاكَ بى ، فجعل أحدنا حجةً على الآخر ، فغَدَوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن ، فطلبتَنى بما لم تَجْنِ يدى ولا لسانى ، وعصيتَه أنتَ وأهلُ الشأم ، وألَّبَ عالمُكم جاهلَكم ، وقائمُكم قاعِدَكم ، فاتّقِ الله فى نفسك ، ونازِعِ الشيطانَ قِيادَك ، واصْرف الى الآخرة وجهَك ، فهى طريقُنا وطريقُك ، واحذرْ أن يصيبك الله بعاجل قارعةٍ تَمَسُّ الأصْلَ ، وتقْطَعُ الدابِرَ ، فإنى أُولِى لك بالله أليّةً غيرَ فاجرةٍ ، لئن جمعتنى وإيّاك جوامعُ الأقدار لا أزال بساحتك حتى يحكمَ اللهُ بيننا وهو خير الحاكمين ، وقال أيضاً مخاطباً له أمّا بعدُ ، فقد علمتَ إعْذارى فيكم ، وإعْراضى عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا مَدْفع له ، والحديث طويلٌ ، والكلام كثير. وقد أدْبَرَ من أدْبر ،

وأقبل مَنْ أقبَل ، فتابِعْ مَن قبلَك ، وأقبِلْ الىَّ فى وَفدٍ من اصحابك والسلام ، وقال يخاطبه بالاستدراج : أمّا بعدُ فإنى على التردُّد فى جوابك ، والاستماع الى كتابك ، لمُوْهِنٌ رأيِي ومُخْطِئٌ فِراستى ، وإنك إذ تُحاولُنى الامورَ ، وتُراجعُنى السطورَ ، كالمشتغل النائم ، تكذّبه أحلامه ، والمتحير القائمُ يُنْهِضُهُ مُقامُه لا يَدرِى أله ما يأْتى أم عليه ، ولستَ به ، غيرَ أنه كلٌّ شبيهٌ ، وأُقسم بالله لولا بَعْضُ الاستبقاءِ لوصلَتْ منى اليك قَوَارِعُ تَقْرعُ العظْمَ ، وتَنْهَسُ اللحمَ ، واعلم أن الشيطان قد ثبَّطك عن أن تُراجع أحسنَ أمورك ، وتأذَن لمقالِ نَصيحِك والسلام ، وقال يخاطب طلحةَ والزبير بالملاطفة العجيبة : أمّا بعدُ فقد علمتُما وانْ كتمتُما أنى لم أُرِد الناس حتى أرادونى ، ولم أُبايعهم حتى بايعُونى ، وأنكما ممّن أرادَنى وبايَعنى ، وأنّ العامّة لم تبايعنى لسلطان غالبٍ ، غاصبٍ ، ولا لغَرَضٍ حاضرٍ ، فإنْ كنتُما بايعتمانى طائعين ، فارجعا وتُوبا الى الله من قريب ، وان كنتما بايعتمانى كارهَين فقد جعلتما لى عليكما السبيلَ ، بإِظهاركما الطاعة ، وإِسْراركما المعصية ، ولعَمْرِى ما كنتما بأحقَّ من المهاجرين بالتقيّة والكتمان ،

وإنّ دفعكما هذا الأمرَ من قبلِ أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بغير إقراركما به ، وقد زعمتُما أنى قتلتُ عثمان ، فبينى وبينكما مَنْ تخلَّف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يُلْزَمُ كلُّ امرىءٍ بقدر ما احتمَل ، فارْجعا أيها الشيخان عن رأيكما فإنّ الآن أعْظَمَ أمْرِكما العارُ من قبل أن يجتمع العار والنار والسلام ، وقال أيضاً يخاطب محمدَ بنَ أبى بكر لمّا بلغه توجُّدُه عليه حين عزَله بالأشتر : وقد بلغنى مَوْجِدَتُك من تسريح الاشتر الى عملك وانى لم أفعل ذلك استبطاءً لك فى الجهْد ، ولا ازدياداً فى الحدّ ، ولو نَزَعْتُ ما تحت يدك من سلطانك لوَلَّيتك ما هو أيسرُ عليك مؤنةً وأعجب اليك ولايةً ، إنّ الرجل الذى كنتُ ولّيتُه أمرَ مصر كان رجلا لنا ناصحاً ، وعلى عدوّنا شديدا ناقِماً ، فرحِمَه الله ، فلقد استكمل أيّامه ، ولاقَى حِمَامه ، ونحن عنه راضُون ، أولاه الله رضوانَه ، وضاعف الثوابَ له ، فاصْحَرْ لعَدُوّك ، وامْضِ على بصيرتك ، وشمِّرْ لحرْب مَن حاربك ، وادْعُ الى سبيل ربك ، وأكْثِر الاستعانَة بالله ، يَكْفِك ما أهَمَّكَ ويُعِنْك على ما ينزل بك والسلام ، فهذا ما أردنا ذكره من كلام أمير المؤمنين فى الاستدراجات

اللطيفة ، وكم له فى هذا النوع من الكلمات لأنه كان قد بُلِىَ بحَرْب أهل القبلة وخروجهم عليه ، فكان حريصا على إبانة الحجةِ ، وإيضاح المحجّة ، بالأقوال اللطيفة ، والخطابات الرفيقة ، إبلاغاً للحجة ، وقطعاً للمعذرة ، ولله دَرُّ أمير المؤمنين ، فلقد كان قوّالا للحقّ ، فعّالا له ، مُوضّح السُّنن والمعالم ، والناصح لله وللدين لا تأخذُه فيه لومة لائم

(المثال الرابع)

ما ورد عن البلغاء فى الاستدراج ، يحكى أنه وقعت بين الحُسَين بن على صلوات الله عليه ، وبين معاويةَ بن أبى سفيان مفاوضةٌ فى أمر ولده يزيد ، وذلك أن معاوية قال للحسين بن على : أَمَّا أُمُّكَ فإنها خيرٌ من أمّه ، وفاطمةُ بنتُ رسول الله خيرٌ من امرأة من كلب ، وأمَّا حُبِّي يزيد فانى لو أُعْطِيتُ به مِثْلَك ملْءَ الغُوطَةِ ما رَضيت ، وأمّا أبوك وأبُوه ، فإنهما تحاكما الى الله فحَكَم لأبيه على أَبيك ، فلينظر الناظر ما اشتمل عليه كلامُ معاويةَ من المراوغة عن الحق وتلبيس الأمر فى ذلك على السامع بلطيف الاستدراج وحسن الإجمال مع ما فيه من البلاغة والفصاحة ، فانظر الى عِظَمِ

دهائه ، وإغراقه فى الحذق والكياسة ، حيث علم وتفطّن ما كان لأمير المؤمنين من السبق فى الإسلام ، وحسن الإبلاء فى الجهاد لأعداء الله ، وما خصّه الله به من العلم الباهر والقدم الراسخ فى الزهد والعبادة فلم يتعرض للمفاخرة فى ذلك ، ولا دعا الى المنافرة ، ولو قال إن الله قد أعطانى الدنيا ، ونزعها منكم ، لأن مثل هذا لا فضل فيه ، لأن الدنيا لها البرُّ والفاجر ، ولكن صفح عن ذلك كله ، وأعرض عنه ، وأتى بكلام مبهم لا يفهم منه المقصود ، وهو قوله : إنّ أباك وأباه تحاكما الى الله فحكم لأبيه على أبيك ، فانما أتى بهذا الكلام ليسكت خصمه ، ويستدرجه الى الإصمات ، وهذا من غدره ودهائه قليل ، ومن لطيف ما جاء فى الاستدراج من المنظوم ما قاله أبو الطيب المتنبى : وذلك أنّ سيف الدولة كان مخيّما بأرض الديار البكريّة على مدينة ميّا فارقين ، ليأخذها فعصفت الريح خيمته فأسقطتها فتطيّر الناس لذلك ، وقالوا إنه لا يأخذها فامتدحه أبو الطيب بقصيدة لامية يعتذر فيها عن سقوط الخيمة ، ويستدرج ما أثّر ذلك فى صدره بالإزالة والمحو ، تقريباً لخاطره ،

وتطييباً لنفسه، فأجاد فيها كلَّ الإجادة، وأحسن فى الاعتذار والاستدراج غاية الإحسان، مطلعها : (أينْفعُ فى الخَيْمَةِ العُذَّلُ) ومنها قوله

تضيقُ بشخصك أرْجَاؤُها
ويرْكُضُ فى الواحدِ الجحفَلُ
وتقْصُرُ ما كنتَ فى جوْفها
وتُرْكَزُ فيها القنَا الذُّبَّل

ثم قال

وإنَّ لهـا شرفاً باذِخاً ... وإنّ الخيامَ بهـا تَخجَلُ
فلا تُنـكِرَنَّ لها صرْعَةً ... فمِنْ فرَحِ النفسِ مايقتُل
ولمّـا أمرت بتَطْنيبها ... أُشيعَ بأنكَ لا ترْحَلُ
فمـا اعتمدَ اللهُ تقويضَها ... ولـكنْ أشارَ بمـا تفعلُ
وعرَّف أنّك منْ همِّه ... وأنّكَ فى نَصْرِه تَرْفلْ
فمـا العانِدُون وما أمَّلوا ... وما الحاسِدُون وما قوَّلُوا
همُ يطلبُون فمَنْ أدْركوا ... وهم يـكْذِبون فمن يقْبَلُ
وهمْ يتمنّوْنَ ما يَشتَهو ... نَ ومِنْ دُونهِ جدُّكَ المُقْبل

فهذه الأبيات من أعظم الأمثلة فى الاستدراج وإزالة

ما يقع فى النفوس ، ولو لم يكن فى شعره الاّ هذه القصيدة ، لكانت كافيةً فى معرفة فضله ، وكونه فائقاً فيه ، ولْنقتصر على هذا القدر من أمثلة الاستدراج ففيه كفاية

﴿ الفصل الرابع ﴾

(فى الامتحان)

اعلم أنّ من المعانى ما يكون متوسّطاً فيما أُتِىَ به من أجله ، فيكون اقتصادا ، ومنها ما يكون قاصراً عن الغرض فيقال له تفريطٌ ، ومنها ما يكون زائداً عن الحدِّ فيكون إفراطا ، فهذا الفصل يسمى الامتحان لما كان فيه الإفادةُ لمعرفة هذه الأمور الثلاثة ، فاذا عرفت هذا فاعلم أن هذه الأمور الثلاثة ، أعنى الاقتصاد ، والتفريط ، والإفراط ، لها مدخلٌ فى كل شيء من العلوم والصناعات ، والأخلاق والطباع ، ولا بُدّ من بيان معانيها فى الأوضاع اللغوية ، ثم نظهر نقلها الى المعانى

فأمّا الاقتصادُ فاشتقاقه من القصد وهو العَدْلُ الذى لا يميل الى أحد الطرفين ، قال الله تعالى (فمنهُمْ مُقْتَصِدٌ)

فوسطه بين قوله (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم سابق بالخيرات) فظلم النفس ، والسبق بالخيرات هما طرفان ، والاقتصاد أوسطهما ، وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فالإسراف ، والإقتار طرفان ، والقوام ، هو الوسط والاقتصاد ، لأن الوسط لا بد له من طرفين ، ولهذا قال عليه السلام : خير الأمور أوساطها ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لباس الشهرتين ، فلا بد هناك من وسط مأمور به ، وهو لباس أهل الصلاح ، فلا يكون لباس أهل الفخر والخيلاء ولا لباس أهل الإدقاع والفقر والمسكنة ، ولهذا قال بعضهم

عليك بالقصد فى كل الأمور تفز (١)

إن التخلق يأتى دونه الخلق

والوسط مستحسن عقلا ، وشرعا ، وعرفا ، وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ، ولهذا قال تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) اى ما أهملنا من إيداعه المصالح الدينية ، ولا ضيعناها منه ، وأما الإفراط ، فهو الإسراف فى الشىء

---

(١) الرواية عليك بالقصد فيما أنت فاعله

والتجاوُز للحدّ فيه يُقَالُ أفْرط فى الشئ ، اذا تجاوَز الحدَّ ، فصار التفريطُ والإفراطُ هما الطّرفان الضدّان ، والاقتصادُ هو الوسَطُ فى الاعتدال ، فهذه هى المعانى التى تفيدها هذه الألفاظ من جهة اللغة ، فاذا عرفتها فنقول قد نُقلَت هذه المعانى الثلاثة الى أمور مصطلح عليها فى علوم البيان ، نوضّحُها ونجعلها على مراتبَ ثلاث

(المرتبة الأولى فى الاقتصاد)

ومعناه أن يكون المعنى المندرجُ تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبَّرُ عنه مساوياً له من غير زيادة ، فيكون إفراطا ، ولا نقصانٍ ، فيكون تفريطاً ولْنوردْ فيه أمثلة أربعة توضح المقصود منه بمعونة الله تعالى

(المثال الأول)

من كتاب الله تعالى : وهذا كقوله تعالى فى صدر سورة البقرة فى صفة المتقين (هُدًى للمتّقينَ الّذينَ يُؤْمنُون بالغَيْب ويُقيمُون الصلاَةَ ومِمَّا رزقنَاهم ينْفِقون والذين يُؤْمنون بما أُنْزِلَ إِليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أُولئكَ

على هُدًى من ربهم وأُولئكَ هم المفلحون) فهذه الأوصاف على نهاية الاقتصاد والتوسط من غير إفراط ولا تفريط ، وقوله تعالى فى افتتاح سورة المؤمنين فى صفة أهل الايمان (قدْ أفلَح المؤمنُون الّذين همْ فى صلاتهم خاشعُون والذين همْ عن اللّغْوِ مُعْرِضون والذين همْ للزّكاة فاعلُون) الى قوله (أُولئك هم الوارثون) والقرآن واردٌ على هذه الطريقة ، فإنه واردٌ على نهاية الاعتدال والتوسط ، فهذا ما ورد فى المدح ، فأمّا الذمُّ فكقوله تعالى فى سورة نون يخاطب به الوليدَ بن المُغيرة المخزومى ، وقيل الأخنسَ ابن شُرَيْقٍ ، وقيل الأَسْوَد بنِ عبدِ يَغُوثَ (ولا تُطِعْ كلَّ حلّافٍ مَهينٍ همّازٍ مشّاءٍ بنَميمٍ منّاعٍ للْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنيمٍ) فهذه أوصافٌ دالّة على الذمّ ، صادقةٌ عمّا هم عليه من هذه السِّمَاتِ جاريةٌ على جهة الاعتدال والتوسُّط من غير إفْرَاطٍ ولا تفريطٍ ، وهكذا القول فى جميع علوم القرآن وأصوله من الأوامر ، والنواهى والوعد ، والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، فانها جارية على جهة التوسط والاعتدال لا تخرج عن حدٍّ فيما تناولته من مَدْحٍ ولا ذَمٍّ ولا غيره كما يكون الخروج فى غيره

(المثال الثانى)

من السنّة النبوية، فمن ذلك قوله صلى الله عليه: ألاَ أحدّثكم بأحبّكم الىّ وأقربكم منى مجالسَ يومَ القيامة، أحاسنُكُمْ أَخلاقاً المُوَطَّؤُن أكنافاً الّذين يألفُونَ ويُؤْلفون، ألاَ أُخبركم بأبغَضِكم الىَّ وأبعدِكم منّى مجالسَ يومَ القيامة، الثَّرثارُونَ المُتَفيهقُونَ فانظر الى حبّه. فما أعدَله، والى بُغْضِه. ما أقوَمَه، فأعطى المُحَبَّ ما يليقُ به، وأعطى المُبْغَضْ ما يستحقّه من غير إفراطٍ فى الجانبين، ولا تفريط فى حقّهما ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البخيلُ بعيدٌ من اللهِ، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النار، والسَّخِيُّ قريبٌ من الله قريبٌ الناس، بعيدٌ من النار، وقال عليه السلام: إنّ مع العزّ ذُلا، وإنّ مع الحياةِ موْتاً، وإنّ مع الدنيا آخرةً، وان لكلّ شيء حَسيباً، وإن على كلّ شيء رقيباً، وإنّ لكل أحدٍ كتاباً، ولكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئة عقابا، وقوله صلى الله عليه وسلم: اغتنِمْ خمساً قبل خمسٍ، شبابَكَ قبلَ هرَمِكَ وَصِحّتَكَ قبل سقمك وَحياتَكَ قبلَ موتِك، وغناك قبل فقْرِك، وفراغَكَ قبل شغْلِك، وقوله صلى الله عليه وسلم: إنّه مَنْ خَافَ البيَاتَ

أَدْلَج ، ومَنْ أدْلَجَ فى المسيرِ وَصَلْ ، وانما تَعْرفون عواقبَ أعمالِكُمْ لو قد طُوِيَتْ صَحَائِف آجالِكم ، أيُّها الناسُ . إنّ نيّة المؤمن خيرٌ من عَمَلِه ، ونيةَ الفاسقِ شرٌّ من عمله ، فليتأمل المتأمّلُ فى كلامه عليه السلام من الاقْتِصاد فى الوعظ ، وفى وصف المحبة والبغض ، وغير ذلك من كلامه فإنه لا مِرْيَةَ فى كونه سالكاً فيها طريقة القصد ، وناهِجاً مَنْهَجَ العدل لا يَغْلو فيُفْرِط ولا يَحِيفُ فيُفَرِّط

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرَّمَ الله وجهه ، وهو جارٍ فيما هو فيه على قانون النَّصَفةِ ، وسالكٌ لطريق الحق والمعْدَلة ، من ذلك ما قاله فى صفة المؤمنين وأهل التقوى : وإن للذِكْر لَأهلاً أخذُوه من الدنيا بَدَلاً ، فلم تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنه ، يقطعون به أيّامَ الحياةِ ، ويَهْتِفُون بالزواجر عن محارم الله فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ويَأْتمِرُون به ، وينْهَون عن المنكر ويتناهَوْنَ عنه ، فكأنما قطعُوا الدنيا الى الآخرة ، وهمْ فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطّلعوا على غيوب أهل البَرْزَخِ فى طُول الإقامة فيه ، وحقّقَتْ القيامةُ عليهم عذابَها

فكشفوا غِطاءَ ذلك لأَهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون ، فلو مثّلتهم لعقلك فى مقاومهم المحمودة ، ومجالسهم المشهودة ، وقد نشروا دواوينَ أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم ، على كل صغيرة وكبيرةٍ أُمروا بها فقصَّروا عنها ، أو نُهوا عنها ففرَّطوا فيها ، وحمَّلوا ثِقلَ أوزارهم ظهورَهم ، فضعفوا عن الاستقلال بها ، فنشَجُوا نشيجاً وتجاوبُوا نحيباً ، يَعجُّون الى ربهم من مقاومِ نَدَمٍ واعتراف ، لرأيت أعلامَ هدًى ومصابيح دُجًى ، قد حفّت بهم الملائكة ، وتنزَّلتْ عليهم السكينة ، وفُتحت لهم أبواب السماء ، وأُعدَّتْ لهم مقاعدُ الكرامات ، فى مقعدٍ اطّلع الله عليهم فيه فرضىَ سعْيَهم ، وحمدَ مُقامَهم ، رَهائنُ فاقةٍ الى فضله ، وأُسارى ذِلَّةٍ لعظمته ، جَرَح طولُ الأَسَى قلوبهم ، وطولُ البكاء عيونهم ، لكلِّ بابِ رغبةٍ الى الله يدٌ قارِعة ، يسألون مَن لا تضيقُ لديه المنادِح، ولا يخيب عليه الراغبون،

ومن كلام له عليه السلام يصف فيه أهل النفاق قال فيه : أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، وأُحذّركم أهلَ النّفاق ، فإنهم الضالّون المُضلّون ، والزالّون المُزِلّون، يتلوّنون ألوانا ،ويفتنّون

افتتانا ، ويَمدُّونكم بكل عِماد ، ويرصُدونكم بكلّ مِرْصاد ، قلوبُهم دَوِيَةٌ، وصفاتهم نقيّة، يمشون الْخفَاء، ويدنون الضَّرا ، وصفُهم دَوَاءٌ ، وقلوبُهم شفاءٌ ، وفِعلُهم الداءُ العياء ، حسَدَةُ الرَّخاء ، ومؤكّدوا البَلاء ، ومُقْنِطُوا الرَّجاء ، لهم بكلّ طريق صَرِيعٌ ، والى كلّ قلبٍ شفيع ، ولكلّ شَجْوٍ دموع ، يتقارضون الثّناء ، ويتراقبُون الجزاء ، إن سَأَلُوا أَلْحَفُوا ، وإنْ عَذَّبُوا كشفُوا ، وإنْ حَكَمُوا أسرَفوا ، قد أعَدُّوا لكلّ حقّ باطلا ، ولكلّ قائمٍ مائلاً ، ولكل حيّ قاتلا ، ولكلّ باب مفتاحاً ، ولكل ليلٍ صباحاً ، فهم لِمَةُ الشيطان، وحُمَةُ النّيران ، أولئك حزبُ الشيطان ، أَلَا إِنّ حزب الشيطانِ هم الخاسرُون ، فانظر الى كلامه فى الفريقين كيف أبرز من كلّ واحد منهما حقيقةَ حاله ، وميّز أحدهما عن الآخر ومثّلَه بأعجب مثاله ، قد طابق بكلامه المرادَ ، من غير نقصانٍ فيه ولا ازدياد ، وأقولُ لقد ضَرَبَتْ عليه البلاغةُ سُرَادِقَها ، وأحاطَ من الفصاحة بمكنونها وأسْرار حقائقها

(المثال الرابع)

ما كان من كلام البلغاء فى ذلك وهذا كقول الفرزدق يمدح زَيْنَ العابدين عليّ بن الحسين

هذا الذى تعرفُ البطحاء وَطْأَتَهُ

والبيتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحَرَمُ

هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِم

هذا التقىُّ النَّقِىُّ الطاهِرُ العَلَمُ

يكاد يُمسِكهُ عِرْفَانَ راحتِهِ

رُكنُ الحطيمِ اذا ما جَاءَ يَسْتَلِمُ

ومن هذا قول البحتُرى

ولو أنّ مشتاقاً تكلّفَ فَوْقَ ما

فى وُسْعِهِ لَسَعَى اليك المِنْبَرُ

فهذا مدحٌ مقتصدٌ ليس فيه إِسْراف ولا تَقْتِير ولا رَكِبَ صاحبُه إفراطاً ولا تفريطا ، ومن هذا قول بعضهم يهجو غيره

لقد صَبَرَتْ فى الذلّ أَعوادُ مِنبَرٍ

تَقُومُ عليها فى يديكَ قَضِيبُ

فهذا ذَمٌّ لم يرتكبْ فيه شَطَطاً ، ولا رام فيه فَرَطاً ، بل وصفها بالذل لكونها حاملةً له ، لان من هوَانها كونَه راكباً لها عالياً عليها ، فهذا تقرير الأمثلة فيما جرى من الكلام على جهة الاقتصاد

(المرتبة الثانية)

(فيما يجرى على جهة التفريط)

فيورَد على جهة التقصير فى المعبّر عنه ، والتضييع والإهمال له ، فمن ذلك ما قاله الفرزدق

أَلَا لَيتَنَا كنا بعيرَيْنِ لا نَرِدْ
على حاضرٍ الاّ نُشَلُّ ونُقْذَفُ
كِلاَنَا به عُرٌّ يُخَافُ قِرَافُه
على الناس مَطْلِيٌّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ

فما هذا حالُه من جملة التفريط لكونه من جملة الأُمنيّات النازلة ، والمقاصد السخيفة ، التى لا ثمرة لها ولا جدوى عندها ، فإن حاصل ما قال فى هذين البيتين أنه قصرَ أُمنيَّتَه على أن يكون هو ومحبوبه ، كبعيرين أجرَبَين لا يقربُهما أحدٌ ، ولا يَقْرُبانِ أحداً ، الاّ طردَهما ، نفاراً منهما ، وعَيْفَةً لمقاربتهما ، لما فيهما من العُرّ ، وهو داءٌ يصيب الإبلَ فى مشافرها ، والأخْشَفُ بالخاء والشين المعجمتين . البعيرُ الذى يجترىء على المسير بالليل ، والقِرافُ . المداناةُ والقرب ، وغرضُه من ذلك كله البُعْد عن الناس بمنزلة مَن به داء عظيم ،

يُتأفّفُ منه ويُبعد عنه ، ولقد كان له مندوحة عن مثل هذه الأماني السخيفة البعيدة ، فأينَ هذا من قول من قال في الاماني الرقيقة ، والطرائف الرشيقة

(يا ربّ إنْ قدّرْتَه لُمقبلٍ
غَيْرِى فللْمسواكِ أو للأكؤسِ)
(واذا حكمتَ لنا بعين مُراقبٍ
في الدهر فلْتَكُ من عيونِ النرْجسِ)

فانظر ما بين الأُمنيّتَيْن من التفاوت العظيم ومن أمثلة التفريط ما قاله أبو تمام يمدح رجلا

يَتّقى الحربَ منه حين تَغْلِى مراجلُها بشيطانٍ رجيمِ

فما هذا حاله في المديح ، من التفريط والإِهمال والتضييع الذى لا يُمْدَحُ بمثله بحالٍ ، لما فيه من مقابلة الممدوح بأقبح الأسماء ، وأسوإِ الصفات وكقوله أيضاً يمدح رجلا

ما زال يَهْذى بالمكارم والعُلا حتى ظننا أَنّهُ مَحْمومُ

وكقوله أيضاً

أنتَ دَلْوٌ وذُو السماح أبو مو
سَى قَلِيبٌ وأنت دلْوُ القليب

فما هذا حاله من المدائح التى نزلت فى الرّكّة وكانت معدودة فى التفريط البالغ، ومن أمثلة التفريط ما قاله البحترى يمدح الفتح بن خاقان فى قصيدته المشهورة ويذكر فيها لقاءه للأسد وقتله له

شهدت لقد أنْصَفْته حين تَبْترى
له مُصْلَتاً عَضْباً من البيضِ مِقْضبَا
فلم أَرَ ضِرْغامَيْن أصْدَقَ منكُما
عِرَاكاً إِذا الَهيَّابَةُ النّكْسُ كَذّبا

فقوله : اذا الهيّابة النكس كذبا . ليس فيه مدحٌ ، وقد فَرّط فى إيراده مدحا لهذا الرجل ، وكان الأخْلَقُ بالمدح ان يقول : إِذا البطل كذب ، لانه الأمدح فى إِقدام المُقْدِم فى الموضع الذى يفرُّ منه الجبان ، إِذ لاَ فَضْلَ فى مثل هذا ، وانما الفضل فيما قاله ابو تمام

فتًى كلّما ارْتَادَ الشجاعُ من الردى
مَفَرًّا غداةَ المأزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعاً

ومن التفريط ما قاله بعض الشعراء

وتلحقه عنــد المكارِمِ هِزَّةٌ
كما انْتَفَضَ المَحْمُوم من أُمّ مِلْدَمِ

فهذه الامثلة كلها من المدائح التى وقع التفريط فيها ولا يجوز استعمالها ، فالمعنى فيها وان كان حسناً جيداً ، لكنه لأجل العبارة كان مستقبحاً مسترذلاً ، تعافه الطباعُ ، وتمجُّه الأسماع ، وليس من التفريط شئ فى كتاب الله تعالى ، ولا فى السنة النبوية ، ولا ورد فيه شيء من كلام امير المؤمنين ، حِرَاسةً من الله تعالى لها وكَلَاءةً منه عنها فأَيْنَ ما ذكره هذا الشاعر ممّا قاله ابن الرومى يمدح أقواما

ذهب الذين تَهزُّهم مُدَّاحهم
هزَّ الكماةِ عوالىَ المُرَّانِ
كانوا اذا مُدِحُوا رَأَوْا ما فيهمُ
فالأرْيَحِيَّةُ منهم بمكانِ

(المرتبة الثالثة)

ما يكون على جهة الإفراط وهو كما ذكر تجاوُز الحد فى المدح والذم وغيرهما من المقاصد ، وهل يجوز استعماله فى الكلام أم لا ، فيه مذهبان ، المذهب الأول جواز استعماله ، وقالوا إِن أحسن الشعرْ أكذبُه ، بل أكذبهُ يكون أَصْدَقَه ، ويُصدِّق ذلك قوله تعالى (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فظاهر الآية

وإن كان وارداً على جهة الذمِّ لهم بدليل ما قبلها ، لكنه محتملٌ للإباحة، كأنه جعل ذلك من دَأْبهم ومن عادتهم ، وانه لا شاعرَ يوجد الا وهذه صفته كما قال تعالى (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) كأنه صار مُتابعة الغاوين لهم من جملة أوصافهم ، وقد تَهالَكَ الشعراء فى ذلك وأتوْا فيه بكلِّ مُعْجِب مما يُخْجِل الأذهان ، ويُصِمُّ الآذانَ لغرابته ، ويُحَيِّرُ الافهام لشدة الاعجاب به

(المذهب الثانى)

منَعَه آخرون، وزعموا أن الأمورَ لها حدُودٌ ونهاياتٌ مما يدخل تحت الإمكان ، فأمَّا ما كان من الأمور ما لا يدخل تحت الإمكان ولا يُعْقَلُ وجودُه فلا وجه له ، والمذموم من الإفراط ما لا مدخل له فى الوجود على حال ، والمختارُ عندنا جوازُه على كلِّ أحواله ، لأنه اذا كان جائز الوجود فهو مُعْجِبٌ لا محالة ، لاشتماله على المبالغة فى المدائح وأنواع الذمّ ، وإن لم يكن جائز الوجود ، فالإعجابُ به أشدُّ ، والملاحة فيه أدخلُ ، وقد ورد مثل ذلك فى كتاب الله تعالى قال الله تعالى (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لَتَزُولُ منه الجبالُ) على قراءة من قرأ بفتح اللام فى تزول ، لانها هى الفارقة بين المؤكدة والنافية ، وعلى هذا يكون معنى الآية وإنّ مكرهم لتزولُ منه الجبال ، فأمّا من قرأ بكسر اللام فإنها هى المؤكدة للجحْد ، وليس فيها دلالةٌ ، ولا شكّ أن من المحال فى العقول أن المكر يُزيل الجبال ويُزحزحها عن مُستقرّاتها ، وهكذا قوله (جداراً يُريدُ أنْ ينقَضَّ فأَقامَه) ومن المحال حصول الإرادة فى الجدار ، وقوله تعالى (لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلَوَاتٌ) ويستحيل الهدْمُ فى الصلوات ، وقوله تعالى (فأذاقَهَا اللهُ لباسَ الجُوعِ) ويستحيل فى القرية ان تذوق ، وقوله (وَجَاؤُوا على قَميصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) والدّمُ لا يكون كذباً الى غير ذلك من الاستعارات الرائقة ، فإن كان الإفراطُ كله يكون قبيحاً فما هذا حالُه مما ورد فى القرآن ليس إفراطاً ، وإن كان الإفراطُ منقسماً الى حَسَنٍ وقبيحٍ ، فهذا الذى ورد فى القرآن من أحسنه وأعجبه ، ولْنُوردْ أمثلة الإفراط من المنظوم قال عنترة

وأَنا المنيةُ فى المواطن كُلّها
والطعنُ منّى سائقُ الآجال

ومن ذلك ما قاله بَشَّار

اذا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هتَكْنَا حِجَابَ الشمسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

ومن ذلك ما قاله النابغة الذبيانى

اذا ارْتَعَثَتْ خاف الجبانُ ارتِعَاثَها
ومن يتعلَّقْ حيثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ

يصف امرأةً بطُول عُنقها ، والرِّعاثُ جمع رَعْث وهو القُرْط المعلّق بالأُذن ، ومن ذلك ما قاله أبو نُوَاس يمدح رجلاً قال

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشرْكِ حتى إِنَّه
لَتَخَافُكَ النُّطَفُ التى لم تُخْلَق

ويحكى أن العَتَّابى لقى أبو نواس فقال : أما خِفْتَ الله تعالى واستحْيَيت منه حيث تقول (وأخفت أهل الشرك) البيت فقال له أبو نواس وأنت ما راقبت الله حيث قلت

ما زلتُ فى غَمَرات الموت مُطَّرحا
يَضِيقُ عنّى وسِيعُ الرأى مِنْ حِيَلِى
فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لى
حتى اختَلَسْتَ حياتِى من يَدَىْ أَجَلِى

فقال له العتّابى قد علم اللهُ وعلمتَ أنّ هذا ليس من مثل قولِك، ولكنّك تُعِدُّ لكلِّ ناصحٍ جوابا ، وقد أورد أبو نُواس هذا المعنى فى قالَبٍ آخر فقال

كثُرت منادمةُ الدماءِ سيوفَه
فلقلَّ ما تحتَازُها الأَجفانُ
حتى الذى فى الرَّحْمِ لم يكُ صورةً
لفؤادِه من خوفه خَفَقَانُ

فانظر الى هذه المعانى ما أكذبها وما ألطفها وأرقها وأرشقها ، وكلُّ مَن خرَقَتْ قِرطاسَ سمعه فإنه يعجب منها غاية الإعجاب ، فأما أبو الطيب المتنبى . فإنّ له فى الافراط اليد البيضاءَ ، والطريقة المُثلَى قال

كأن الْهَامَ فى الهيجا عُيُونٌ
وقد طُبِعَتْ سيُوفُك من رُقادِ
وقد صُغْتَ الأسنّةَ من هُمُومٍ
فما يخْطُرْنَ الا فى فؤادِ

فانظر الى هذه الاستعارة الرائقة التى أنافتْ على كلّ غاية، وجاوزت فى الحسن والديباجة كل نهاية، ومن ذلك ما قاله

طوالُ الرُّدَينيّاتِ يقصفُها دَمى
وَبيضُ السُّرَيجيَّاتِ يقطعها لَحْمى

ومن ذلك ما قاله ايضاً

أمضَى ارادته (فَسَوْفَ) لهُ (قَدْ)
واستقرَبَ الأَقْصَى (فَثَمَّ) له (هُنَا)

وارشق مما ذكرناه وأدق قوله

عقَدَتْ سنابكُها عليها عِثْيَرًا
لو تَبتَغِى عَنَقاً عليه لأمْكَنَا

وأعجبُ من هذا وأدق ، ما قاله أيضاً

كأنّها تتلقاهم لتسلُكَهُمْ
فالطعنُ يفتح فى الأجوافِ ماتَسَعُ

الى غيرذلك من الرقائق الرائقة والعجائب الفائقة التى فاق فيها على نُظرائهِ ، وسبق الى غايتها قبل وصول شُعرائه ، ومَن وَقف على حِكمِهِ وأَمثالِهِ ، عرف أن أحداً ممن كان فى عصره لم ينسج على منوالِهِ

﴿ تنبيه ﴾

اعلمأن من جملة الآداب الحسنة ،واللطائف المستحسنة، أن تترك الخطاب لأهل المدائح بالأمر له بكذا وكذا ،

وانما تُخرِجُه مُخرج الاستفهام، اعظاماً للمدوح وإِجلالاً له، عن أن يكون مأموراً، وما هذا حالُه اذا فُعِل فانه يكسِبُ الكلامَ جمالا ويزيدهُ أُبَّهةً ويعطيه كمالا، كما فعل البحترى في قصيدةٍ أنشدها قال

فهلْ أنتَ يا بن الرّاشدين مُختّمِي
بياقوتةٍ تبهى علىّ وتُشرِقُ

ولو قال خَتّمْنى يا بن الرشدين بياقوتة،لم يكن فى الرشاقة والاجلال للخليفة كالأول، ومن هذا قول بعضهم يمدح بعض خلفاء بنى العباس

أمقبولةٌ يا بنَ الخلائفِ من فمى
لديك بوصْفِى غادةُ الشعر رُودَه

فهكذا يصلح خطاب الملوك والخلفاء على هـذا الوجه من حسن الأدب، ولقد غلا بعض من يدعى البلاغة وزعم أنه لا ينبغى مخاطبة الملوك والخلفاء والأكابر بكاف الخطاب، وهذا فاسدٌ، فان الله تعالى هو مالك الملك والمُتعالى بصفات الكمال، قد خوطب بكاف الخطاب كقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (واذكُرْ ربَّك كثيراً، وقوله (واعبُدْ ربَّك حتى

يا تيك اليقينُ) وقد جاء ذلك على ألسنة الفصحاء كثيراً ومنه قول النابغة

وإنّك كالليلِ الذى هو مُدْرِكى
وإنْ خلتُ أَنَّ المُنْتَأَى عنكَ أوْسَعُ

ومن هذا قولُه أيضاً

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسكَ ريبة
وليس وراءَ الله للمرءِ مَذْهَبُ

نعَمْ إنما يُكره ذلك فى المكاتبات ، دون الاقوال ، وإنما يُؤْتى فى الكتابة على جهة الغيبة فى مخاطبة الملوك وأهل الرفعة لا غيرُ ، ومن الآداب الحسنة ان لا تخاطب الملوك باسماء امّهاتهم وجدّاتهم ، وقد عِيبَ على أبى نواس ما أورده فى قصيدته الميمية التى امتدح بها الأمين محمد بن هرون الرشيد حيث قال

أصبحتَ يا ابنَ زُبيْدَةَ ابنةِ جعْفَرٍ
أمَلاً لعقْدِ حبالِهِ استحكامُ

فان ذكر أمّ الخليفة فى هذا الموضع قبيح ، وكان له مندوحة عن ذكر مثل ذلك بابيه او بجده أو غير ذلك من

سائر المدائح المعروفة عند الشعراء المُفْلِقين ، وقد أُخِذ عليه ايضاً قوله فى قصيدة اخرى

وليس كجَدَّتَيْهِ أُمّ موسى اذا نُسِبَتْ ولا كالخَيْزُران

فان مثل هذا يعدُّ فى الركيك من الشعر فضلاً عن أن يكون معدوداً من فصيحه ، وهكذا فإنه قد أُخذ على جرير فى مدح عُمر بن عبد العزيز بذكر أمه حيث قال

وتَبْنِي المجدَ يا عُمَرَ بْنَ ليلى وتَكْفِي المُحْلَ السَّنَةَ الجَمادا

فهذا وامثالُه مما يُعاب ذكره ، وينبغى للشاعر والخطيب تجنُّبُه كما أشرنا اليه ، لا يقال فكيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الزبير لما أخبر أنه سيقتلُ : بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صفيَّةَ بالنار ، فنسبه الى أمّه ، لانا نقول هذا مخالف لما نحن فيه ، فانه لا مدح بذكر امهات الخلفاء والملوك ، لانه لا فضل فيهن ، بخلاف حديث الزبير ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ما قال ذلك الاّ ليرفع قدره فى قُرْبِ نسبه منه ، لكونه ابنَ عمّته وهكذا العذرُ فى قوله تعالى (يا عيسى بن مريم ، فإن الله تعالى انما خاطبه بذكر أُمّه ، لمّا كان لا أبَ له ، فيُذكَرَ باسم ابيه فكان ذكر الام ضرورة فى حقه

(الفصل الخامس)

(فى الارصاد)

اعلم أن الإرْصادَ فى اللغة مصدر أرْصَد الشىءَ ، اذا أعدّه ، ومنه قوله تعالى (انَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصاد) وهو مفْعالٌ ، من رصدَه ، كالميقات ، من وَقتَه ، والغرض أنّ الله تعالى أعدّ العقاب للعُصاة من غير أن يفُوتُوه بهربٍ ولا امتناع ، وأرصدتُ السلاح للحرب ، وهو فى لسان علماء البيان مقبول فى المنظوم والمنثور على أن يكون أول الكلام مرصداً لفهم آخره ، ويكون مُشعراً به ، فمتى قَرَعَ سمعَ السامع أولُ الكلام فإنه يفهم آخره لا محالة ، فما هذا حاله من منثور اللفظ ومنظومه يُقال له الإرصاد ، واشتقاقه هو مما ذكرناه ، فهذا هو الأخلق فى تلقيبه بالإرصاد لما ذكرناه ، وقد حُكى عن أبى هلال العسكرى وكان متقدّماً فى علم البلاغة على غيره آخِذاً منها بحظٍّ وافر ، أنه لقّب هذا النوع من الكلام بالترشيح ، وهذا لا وجه له ، بل تلقيبُه بالإرصاد أخلقُ لما أشرنا اليه فى الاشتقاق ، ولنورد أمثلته ليتضح الأمرُ فيه

(المثال الاول) من كتاب الله تعالى ، وهذا كقوله

تعالى (وما كان الناسُ الاّ أُمّةً واحدةً فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لقُضِيَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون) فإذا قرع سمعَ السامع قوله تعالى (وما كان الناس الاّ أمة واحدة فاختلفوا) ثم وقف على قوله (ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضِيَ بينهم) فانه يعرف لا محالة لما سبق من تصدير الآية أنَّ تتمّتها وتكملتها (فيما كانوا فيه يختلفون) لما تقدم ما يُشعر بذلك ويدلّ عليه ، ومن ذلك قوله تعالى (فمنهم مَنْ أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهمْ مَن أخذتهُ الصيحةُ ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم مَنْ أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم) فإذا وقف السامعُ على قوله (ولكن كانوا) عرف لا محالة أنّ بعدَه ذكرُ ظلمِ النفوس لِما كان فى الكلام الأول ما يدل عليه دلالة ظاهرةً ، وأمارةً قويةً ، وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى (مثلُ الذين اتّخذُوا من دون الله أولياءَ كمَثَل العنكبُوتِ اتّخذتْ بيتاً وإنّ أَوْهَنَ البيوتِ لبَيتُ العنكبوتِ) فاذا وقف السامع على قوله (وإنّ أوهن البيوت) فإنه يعلم لا محالة أنّ بعده بيتُ العنكبوتِ ، ومن هنا قوله تعالى (ذلكَ جزيناهم بما كفروا وهل يُجازى الا

الكفورُ) فاذا وقف السامعُ على قوله تعالى (وهل يُجازى) بعد ما تقدم من الكلام والإحاطة به ، فانه يعلم لا محالة أنه ليس بعد قوله وهل يجازى الاّ (الكفور) وعلى هذا ورد قوله تعالى (هلْ جزاءُ الإحسانِ الا الإحسان) فاذا وقف السامع على قوله هل جزاء الاحسان ، تحقق لا محالة أن ما بعده قوله (الا الإحسان) لما فى ذلك من الملائمة وشدّة التناسب ، ومثل هذا محمودٌ فى الكلام كله نثرِه ، ونظمهِ ، وهو فى كتاب الله تعالى أكثرُ من أن يُحصى ، وما ذاك الاّ لأن خير الكلام مادلّ بعضُه على بعض ، وأحقُّ الكلام بهذه الصفة هو كلام الله ، فانه البالغ فى الذّروة العُليا من الفصاحة فى ألفاظه ، والبلاغة فى معناه

(المثال الثانى)

من السنة الشريفة وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : فما بعد الموت من مُسْتَعْتَب ، وما بعد الدنيا دارٌ الا الجنّةُ أو النار ، فانّ السامع إذا وقف على قوله ، فما بعد الدنيا من دار ، فانه يتحقق لا محالة أن ما بعده (الا الجنة أو النار) لما بينهما من شدّة الملائمة وعظيم المناسبة ، ومن هذا قوله عليه السلام لما

سار لفتح خَيْبَرَ ، فلما رآها قال الله أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَر ، إنا إذا نَزَلْنَا بساحَة قومٍ فساءَ صباحُ المنذَرين ، فان السامع اذا وقف على قوله : نزلنا بساحة قوم ، عرف أنّ ما بعده ، فساءَ صباحُ المنذرين ، لأن قوله اذا نزلنا بساحة قوم . فيه وعيدٌ عظيم لهم بالبوار والإهلاك فهو دالّ على قوله فساء صباح المنذرين، لانه لا صباح أعظمُ فى البلاء من ذلك اليوم لما اشتمل عليه من القتل والأخذ، ونهب المال، ولا بلاءَ مثلُ هذا، وهذا وإن كان قد سبق به القرآنُ لكنه قد تُكُلِّمَ به فى ذلك اليوم ، فلا جَرَمَ أوردناه فى أمثلة السنة ، وإنما عظُمَ موقعُ الآية وكان لها من الفخامة وعلوّ الشأن فى البلاغة ، لما كانت واردة على جهة التمثيل ، مَثَّلَ حالهم فى عدم التفاتهم الى ما أُنْذِرُوا من العذاب الاليم بحال من أُنْذر بحصولَ الجيش فلم يلتفتوا ولا أخَذُوا أُهْبَةَ الحذر منه حتى نزل بدارهم فقطَعَ دَابرَهم واستَأْصَلَ شأفَتَهمْ ، فمن أجل هذا لائم قوله فاذا نزل بساحتهم الى آخر الآية ، حتى فهم آخرها قبل ذكره ، ومن هذا قوله عليه السلام فى صفة القرآن : فإذا التَبَسَتْ عليكم الأمورُ كقِطَعِ الليل المُظلم فعليكم بالقرآن ، فانه شافعٌ مشفَّعٌ

وشاهد مُصَدَّقٌ من جعله أَمَامَهُ قادَه الى الجنة ، ومن جعله خَلْفَه ساقه الى النار ، وهو أوضح دليلٍ الى خير سبيل ، مَنْ قال به صُدِّق ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حَكَمَ به عَدَل ، فانظر الى هذا الكلام ما أعجب تلاؤُمه وأعظم تناسبَه ، فكان بعضه آخِذاً بأعناق بعض ، فلو سُكِتَ على كلّ كلمةٍ لكانت مُعْرِبةً بأختها قبل ذكرها ، وهذا هو شأن الإِرصاد وحقيقةُ أمره ، فلو سكت على قوله (فاذا التبست عليكم الأمور) لأفْهَمَ بقوله (كقطع الليل المظلم) لأن اللبس هو أن لا يُهتَدى فيه للأمر ، كما أن الظلمة لا يُهتدى فيها للطريق وقوله (شافع) دالٌّ على القبول لأنه فى معرض المدح ، وإِعلامٌ بكونه مُشَفَّعاً وقوله (شاهد مصدق) لأن الصدق أحسن ما يعرض للشهادة عند الحكّام ، فاذا كانت المِدَحُ فأحسن أحوالها كونها صادقة وقوله (من جعله أمامه) لأن كل من كان أمامك فهو آخذٌ بزمامك كما يقاد الجملُ بزمامه من قُدّامه ، وهو كناية عن العمل بأوامره ونواهيه وقوله (ومن جعله خلفه ساقه الى النار) لأن من كان خلفك فهو يسوقك كما تساق الدابة من خلفها ،

وهو كناية عن إِهماله وتضييع أحكامه وترك العمل بها ، فلو سكت على قوله (أمام) و (خلف) لا فهما ما وراءهما من ذلك ، ثم قال (وهو أوضح دليل) فأَفهَم خير السبيل من جهة أن الدليل لا بدّ له من ثمرةٍ وهو الهداية الى الطريق ، ثم قال (من قال به صدق) لانه لا يعرض للقول الحسن الا صدقه (ومن عمل به أُجر) لانه لا ثمرة للعمل الا الأجر ، وقوله (ومن حكم به عدل) لأنه لا جدْوَى للحكم الا اذا كان عادلا فحصَل من هذا أن الأمر على ما قلناه من أن هذه الكلمات كلّها ملتئمة كأنها أُفرغت فى قالب واحد وفى هذا كفاية ليُقاس عليهِ غيرُه

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ، فمن ذلك كتاب كتبه الى بعض عمّاله يُوصيه بما هو بصددِه ، أما بعدُ فإِنك ممن استظْهَر به على اقامة الدين ، وأُقمِعَ به نَخْوَةُ الأثيم ، وسُدَّ به أفواهُ الثغرْ المخوف ، فاستعنْ بالله على ما أهمّك ، واخلِط الشدة بِضِغْثٍ من اللّين ، وارفُق ما كان الرفقُ أَرْفَق ،

واعتزِمْ بالشدة حيث لا تُغنى عنك الا الشـدة ، واخفض للرعية جناحك ، وألِنْ لهم جانبك ، وآسِ بَينهم فى اللحظة ، والنظرة ، والاشارة ، والتحية ، حتى لا يطمع العظماء فى حَيفك ، ولا ييأسُ الضعفاء من عدلك والسـلام ، فانظر الى كلامه هـذا لقد جمع فيه محامد الاخلاق الشريفة وأتى فيه بمحاسن الشيم السامية مع ما أشار اليه من حسن الإيالة وجميل السياسة ، وضمّ فيه من آداب الولاة وتعليم معاملة الخلق ، والرفق بالرعية . والإرشاد الى مصالح السيرة فيهم مع ما اشار اليه من الإرصاد التام ، فان كلّ كلمة من هذا الكلام مناسبة لما بعدها وملائمة له على أكمل نظام ، وأعجب إتمام ، فلو وقف على قوله (فانك ممن استظهر به) لفُهم ما بعدها ولو وقف على قوله (وأقمع به) لفُهم ما وراءها ، لأن الاستظهار تقوية واعتماد ، والقمع هو الكفّ وهو ملائم للنخوة وهو العلوّ والكِبْرُ وهكذا قوله (واخفض) فلو وقف عليه لفُهم منه الجناح ، لأنه يستعار كثيرا فى لين الجانب كما قال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وهكذا القول فى سائر ألفاظه ، فانها متلائمة متناسبة يدلّ بعضها على بعض

(المثال الرابع)

(ما ورد من كلام اهل البلاغة)

واعلم أن الشعراء المفلقين يفتخرون بما كان أول البيت دالاً على آخره ، وفى هذا يقول بعضهم

خُذْها اذا أُنْشدت فى القوم من طرب
صدورُها عُرِفتْ منها قَوافيها
ينْسَى لها الراكبُ العجْلانُ حاجتَه
ويُصبح الحاسدُ الغضبان يُطرِيها

وهذا هو الإرصاد كما قلناه ، ومن جيّد الارصاد ما قاله البحترى

أحلّتْ دَمِى من غيرِ جُرْمٍ وحرَّمَتْ
بلا سببٍ يومَ اللقاءِ كلامِى
فليس الذى حلَّلْتِه بمحللٍ
وليس الذى حرَّمْتِه بحرامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى أن عجزه ما قاله البحترى ، وقد جرت العادة عند إنشاد الشعر بانتهاب عَجُز البيت من لسان مُنشده

قبل ذكره ويسبق اليه فيُنشده قبل إنشاده له لما كان المعنى مفهوماً قبل ذكره ، وهذا هو الذى نريده بالإرصاد ومن هذا قول بعض البلغاء

ولربما اعتصمَ الحليمُ بجاهلٍ * لا خير فى يُمنَى بغير يَسارِ

فهذا اذا قرع السامعَ صدرُ البيت ووقف على قوله (لا خير فى يمنى) فانه يتحقق أن لا بُدّ من ذكر اليسار لا محالة ، لما فيه من الملائمة له والمناسبة ، ومن ذلك ما قاله زهير

وأعلمُ ما فى اليوم والامس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عَمِ

فالأزمنة ثلاثة ، الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فلمّا ذكر حكم الماضى ، والحاضر ، عُرف من حاله أن لَا بُدَّ من ذكر المستقبل بحكمه ، وهو الجهل بما يكون غدا ، فلأجل هذا كان الإرصاد فيه سابقاً معلوما ، ومن ذلك ما قاله ابو تمام

فإن يك جرمٌ أو أَتيْتُ بهَفْوَةٍ

على خطاءٍ منّى فعذرى على عمد

فما هذا حاله من أحسن ما يأتى فى الإرصاد فانه لمّا ذكر الخطأ حسُن وقوع العمد بعده وكان مفهوماً عند الوقوف على قوله (على خطاء منى) بلا مرية ، ومن ذلك ما قاله ايضاً

خَرْقَاءُ تلعب بالعقول مزاجُها ۔ كتلعّب الافعال بالأسماءِ

فإنه لما ذكر الأفعال عُلم لا محالة أن عجز البيت أن يأتى بلفظة الاسماء لمَّا سبَقَ ذكرُ الأفعال ، فمن قرع مسامعه هذا البيت وكان له ذوق فى العربيّة ، فانه يعرفه قطعاً وقال أيضا

مودَّةٌ ذهبٌ أثمارُهَا شَبَهٌ

وهمةٌ جوهرٌ معروفُها عَرَضُ

فانه لمّا ذكر الذهب جعل فى مقابله الشبه ولمّا ذكر الجوهر عُلم أن مقابله العرض ، وهذا إرصاد حسنٌ ، وحكى ابن الاثير عن بعض علماء البيان أنه ينبغى لمن يتكلم فى المنظوم والمنثور أن يُجَنّبَ كلامَه الالفاظ المصطلح عليها بين النحاة والمتكلمين واهل الصناعات وغيرهم ، وهذا فاسدٌ لا وجه له فإن الشاعر والكاتب يخوضان فى كلّ شيء ولا يقتصر خوضُهما على فنٍّ دون فنّ ، ولا اصطلاح دون اصطلاح ، ولهذا فانك تراهم إذا استعملوا شيئاً من الكلمات المصطلح عليها فى العلوم او فى الصناعات فى أشعارهم ورقائقهم ، وجدت له أحسن موقع ، وازداد جمالها ، وظهر رونقها وكمالها ، فهذا ما أردنا ذكره فى معانى الإرصاد

﴿ الفصل السادس ﴾

(في ذكر التخلص والاقتضاب)

وهما واديان من أودية البلاغة ، ومن حكمهما يظهر فضل الناظم والناثر ، وكلُّ واحد منهما يرد فى منثور الكلام ومنظومه ، لأن معناهما حاصل فيهما ، فأمّا الاقتضاب فلا يظهر خلاف فى وروده فى القرآن الكريم ، وإنما الخلاف فى ورود التخلص فى القرآن ، وحكى عن ابى العلاء محمد الغانمىّ أنه أنكر وروده فى التنزيل ، وزعم أن كتاب الله تعالى خالٍ عنه ، وهذا فاسدٌ ، فإنّ كتاب الله تعالى لا وَادٍ من أودية البلاغة الا وهو آخذٌ منه بنصيب ، وسنورد من ذلك ما يدلّ على وقوعه فيه ، فاذا عرفت هذا فلنذكر التخلصَ ، ثم نردفه . بذكر الاقتضاب فهذان ضربان نفصلهما بمعونة الله تعالى

(الضرب الأول فى التخلص)

ومعناه فى ألسنة علماء البيان ، أن يسْرد الناظم والناثر كلامهما فى مقصد من المقاصد غير قاصد اليه بانفراده ، ولكنه سببٌ اليه ثم يخرج فيه الى كلام هو المقصود ، بينه وبين الاول عُلْقَةٌ ومناسبة وهذا نحو أن يكون الشاعر

مستطلعا لقصيدته بالغزل حتى اذا فرغ منه خرج الى المدح على مخرج مناسب للأول ، بينهما أعظم القرب والملائمة بحيث يكون الكلام آخذاً بعضهُ برقاب بعض كانه أُفرغ فى قالَب واحد ، ثم يتفاضل الناس فى التخلص ، فعلى قدْرِ الاقتدار فى النظم والنثر يكون حسن التخلص ، والتخلُّصُ فى النثر أسهلُ منه فى النظم ، لأن الناظم يراعى القافية والوزن ، فيكون فى ذلك صعوبةٌ بخلاف الناثر ، فإنه لا يراعى قافيةً ولا يُحافظ على وزن ، بل هو مطلقُ العنان يضعُ قدمَه حيث شاء ، فمن أَجْل ذلك كان أشقّ على الناظم منه على الناثر ، لما ذكرناه ، ولنذكر فى ايضاحه أمثلة اربعة

(المثال الاول)

(من كتاب الله تعالى)

وهو قوله (واتْلُ عليهمْ نَبَأَ إِبْراهيمَ إِذ قال لأبيهِ وقومهِ ما تعبُدون قالوا نَعْبُدُ أصْنَاماً فنَظَلُّ لها عاكِفين قال هل يسمعونكم اذْ تدْعُون أو ينفعُونكمْ أو يضرُّون قالوا بل وجَدْنا آباءَنَا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتمْ تعبُدونَ أنْتُمْ وآباؤكُمُ الأَقْدَمُون فإنَّهمْ عَدُوٌّ لِي الاّ رَبَّ العالمين الّذِى

خلقني فهو يهدين والذى هو يُطعمُنى ويَسقْين وإِذَا مَرضْتُ فهو يَشفين والذى يُميتُنى ثم يُحْيين) ثم قال (ربِّ هبْ لى حُـكْماً وَأَلحِقْنى بالصّالحين) ثم أردفه بقوله (وأُزْلِفَت الجَنَّةُ للمتقينَ وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوين) ثم قال (فَـكُبْـكِبُوا فيها هُمْ والغَاوُونَ وجنودُ إِبليسَ أجْمَعُون) الى قوله (فَلَوْ أَنَّ لنا كَرَّةً فنكونَ من المُؤْمِنِين) فلينظر الى هذا الكلام الذى يُسْـكِر العقول رَحيقُه، ويَسحَرَ الألباب تحقيقُه ، وهو غايةُ مُنْيَةِ الراغب ، ونهاية مقصد الطالب ، فإِنه متى أنعم النظر فى مبانيه ، وتدبّر أسراره ومعانيه ، علِمَ قطعاً أنّ فيه غِنًى عن تصفّح الـكتب المؤلّفة ، وكفاية عن الدفاتر المؤتلفَة ، فيما يُقصد من معرفة هذا الأسلوب من علوم البلاغة ، وقد اشتمل على تخلّصاتٍ عشرةٍ منتظمةٍ نوضّحُها بمعونة الله تعالى

(التخلص الأول)

هو أنه لَمّا أمَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة نبإِ ابراهيم صلوات الله عليه ، وما كان له مع أبيه وقومه من الخُصومة والجدال فى عبادة الاوثان والأصنام ، صدَّرَ القصة بذلك شرحاً لصدره وتسلية له فيما يُلاقى من

قريش ، ثم خرج الى شرح حال إبراهيم وما جرى له ، فانظر الى حسن ما رتّب ابراهيمُ كلامَه مع أهل الشرك حين سألهم عما يعبدون سؤال مُقرِّرٍ ، لا سؤال مستفهِمٍ ، فأجابوه بما هم عليه من ذلك ، وبالغوا فى الجهل والافراط فى الغى ، فقالوا : نعبُد أصناماً ولقد كان يكفيهم ذلك فى الإجابة عما سألهم ، لكنهم تعمّقوا تهالكاً فى الإصرار وتمادياً فى نفارهم عما دعاهم اليه بقولهم (فَنَظَلُّ لها عاكفين)

(التخلص الثانى)

انهم لما أجابوه أراد أن يحقّق عليهم الأمر حتى لا يكون لهم سبيلٌ الى الجحود ، فخرج عن ذلك الى إبطال ما قالوه من عبادة آلهتهم وأنحى عليها من البرهان جُرازاً مقضباً ، ومن الإفحام كلاماً منظماً مهذّبا ، فصدّره بالاستفهام تأدُّباً منه وملاطفة لهم ، ولم يأت بحجته على جهة القطع منه بها ، كمَنْ ينكر الحدوث فى العالم فتقول له هل يجوز عليه التغيُّرُ ولم يقل من أوّل وهلة إن قولكم هذا باطل لا حقيقة له ، ثم أورد فى ابطال إلهيّتها أدلة ثلاثة ، أولها انها لا تسمع دُعاء ، ولا تُدرك نِداء ، لكونها جماداً حجارة صَلْدَةً لا حياة لها

ولا حراك بها ، ومَنْ هذه حالُه فكيف يكون أهلاً للعبادة ، وثانيها قوله (أو ينفعونكم) لأن من كان فيه نفعٌ فهو حقيقٌ بما يُفعل فى حقه من رفع المنزلة وعلوّ الدرجة ، وثالثها قوله (أو يضرون) لأن كلّ من قدر على النفع فهو قادرٌ على الضّر وعكسه أيضا ، لأن حق من كان قادراً على شىء أن يكون قادراً على ضده ، لأن القدرة صالحة للامرين الضدين جميعاً والمختلفين ، فهذه إلزاماتٌ ثلاثة لا مَحيص لهم عنها ، فاذا كان حالُها هذه الحالَ من عدم السمع ، واستحالة النفع والضر منها ، فلا يليق بحالها العبادة التى هى نهاية الخضوع والذلّة للمعبود ، مع عدم الأهلية والاستحقاق ، هذا محال فى العقول بلا مِرْيَةٍ ، ثم أجابوه بالإقرار بما ألزمهم من عدم ذلك منها فزاد إقرارُهم الإلزامَ تأكيداً وإفحاماً فقالوا الأمر فيها كما قلته لكنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فنادَوْا على أنفسهم بالجهالة ، وأقروا بركوب الضلالة ، وأنهم ما فعلوا ذلك عن نظر وتفكر وتدبّر ، فوصفوا نفوسهم بالقصور عن مراتب النُّظّار ، وانخرطوا فى سلك أهل الغباوة والأغمار ، وزعموا أنه لا عُمدة لهم فى ذلك الاّ وُجْدان الآباء ، واقتفاء آثار الاسلاف والرؤساء

(التخلص الثالث)

أنه لما تحقق تعويلَهم على التقليد خرج الى ابطال أمره وتزييفه بقوله (أفرأيتم ما كنتم تعبُدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) فأورد الرد عليهم بالاستفهام على جهة الإنكار متعجباً من حالهم حيث جعلوا ما لا يكون ، حجةً وبرهانا ، وليس حجةً ، بل هو شبهةٌ منكرة ، وأخرجه عن أن يكون حجة ، كأنه قال أفلا ترون ما جعلتموه مستندا لعبادتكم أنتم ومن سلف من آبائكم القدماء ، هل مثلُه يعبد مع كونه لا يسمعُ ولا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يملك شيئاً ، وفيه تعريضٌ بجالهم ، وتجهيلٌ لهم وأن من هذه حاله من عبادة حجر لا يضرّ ولا ينفع فلا عقل له ، ولا يكون معدودا من العقلاء

(التخلص الرابع)

هو أنه لما ذكر أنهم لا يستحقّون العبادة خرج الى ذكر عداوته لمَن هذه حالُه ، فلهذا قال عقيب ذلك (فإنهم عدوٌّ لى) كأنه صوّر المسئلة فى نفسه على معنى إنّى فكرتُ فى أمرى ونظرت فى حالى ، فرأيت أنّ عبادتى لها عبادة

للشيطان العدوّ فاجتنبتُها ، وانما قال (فانهم عدوٌّ لى) بالإضافة الى نفسه ولم يقل فإنهم عدوّ لهم ، ليُرِيَهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسَه ليكون ذلك أَدْعى لهم الى القبول لقوله ، وأَبْعَثَ الى الاستماع لخطابه ، ولو قال : فإنهم عدوّ لكم ، لم يُفِدْ هذه الفائدة ، وكان القياس فى الخطاب بالضمير ان يقول : فإنها عدوّ لى ، أو فإنهن ، لأنه راجع الى الاصنام ، والضمير فى مَن لا يعلم أن يكون على هذه الصورة ، ولكنه أورده على ضمير العقلاء لأمرين ، أمّا أوّلاً فلأنهم لمّا زعموا أنها تستحق العبادة ، وأنها يوجد من جهتها النفع ، ودفع الضر ، صارت لذلك بمنزلة العقلاء ، وامّا ثانيا فلأنهم لمّا كانوا فى الانكار على سواء ، وجّهَ الخطاب اليهم على جهة تغليب حالهم على حالها

(التخلص الخامس)

هو أنه لما ذكر أنها غير مستحقة للعبادة وذكر العداوة لها خرج الى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات اللائقة بذاته من إعظام حاله ، وإظهار جلاله ، وتفخيم شأنه ، وتعديد نعَمِه من لدن إنشائه ، وإبْداعِ ذاته الى حين

مرضه ، ودُنُوّ وفاته ، مع ما يرجى فى الآخرة من عفوه ورحمته، ليعلم أن كل من هذه حاله فهو حقيق بالعبادة واجبٌ على الخلق الخضوعُ له ، والاستكانة لعظمته ، وفيه تعريضٌ بحال ما يعبد من دونه فى الاتصاف بنقائض هذه الصفات كما ترى

(التخلص السادس)

هو أنه لما فرغ مما ذكرناه خرج الى ما يكون ملائماً له ومناسبا فدَعَا الى الله تعالى بدعواتِ أهل الإخلاص ، وابتهل إليه ابتهالَ أهل الأمانة ، لأنّ الطالب من مولاه اذا قدّم قبل سؤاله والتضرع اليه ذِكْرَه بالصفات الحسنى والاعتراف بنِعَمه ، كان ذلك أسرع للإجابة ، وأنجح للمطلوب ، ولهذا فانّ كل من أراد حاجة الى الله تعالى فإنه يستحبُّ له تقديم الثناء على الله بما هو أهله ، وذكرُ صفاته وحمدُه وشكرُه ، ثم يسأل حاجته بعد ذلك فإن ذلك يكون أقرب للإجابة وأسنى لإنجاح الرغبة وإنجازها كما ورد ذلك فى الآداب الشرعية

(التخلص السابع)

هو أنه لما فرغ مما يخصه من الدعاء لنفسه ولأبيه بالدعوات الصالحة خرج عنه الى ذكر البعث يوم القيامة ومجازاة الله مَن آمن به واتّقاه وأخلص له العبادة بالجنة وأَنّ كلّ من عصاه وعبَدَ غيره فإنه مُجازيه بالنار ، فجمع فى ذلك بين الترغيب فى الطاعة والترهيب من المعصية وضمّ اليه ذكر الجنة وإِزْلاَفها لاهلها من أهل التقوى وذكْرَ النار وتبريزها لاهلها من أهل الغَواية كعادته تعالى فى كتابه الكريم ، اذا ذَكَر وَعْدا أَتْبعه بالوعيد ، وعكسه أيضا ليكون حاصلا على الكمال ومراعاة المطابقة فى كل الأحوال

(التخلص الثامن)

هو أنه لما فرغ مما ذكره عاد الى سؤال المشركين ثانياً عند معاينة الأهوال فى يوم الجزاء بقوله (وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله) وانما أورده على جهة التوبيخ والاستهزاء وانهم لا ينصرونكم فى دفع السوء عنكم ، ولا ينتصرون فى دفع ما يخصهم أنفسهم بحال ، ثم وصف حالهم فى النار بقوله (فكبكبوا) اى الآلهة والغاوون ، والكَبْكَبَة تكريرُ

الكبِّ ، لأنه اذا أُلْقى فى النار فانه يُكَبّ فيها مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها ، فجعل تكرير اللفظ دلالة على تكرير المعنى على جهة المطابقة ، اللهم أجرنا من عذابك برحمتك الواسعة

(التخلص التاسع)

هو أنه لمّا فرغ من ذلك خرج الى حكاية ما يقول أهلُ النار فى النار من الخصومة الناشئة بينهم ، و إظهار الحسرة والندامة المُفرِطة على ما كان منهم من عبادة غير الله ومساواته بمن لا يساويه . وانقطاع ما فى أيديهم من شفاعة شافع أو صداقة صديق كما يكون للمؤمنين ، فان شفعاءهم الملائكة والانبياء وأصدقاؤهم هم اهل الايمان والتقوى ، فأما الكفار فلا شىء لهم من ذلك ، فعند هذا تعظم الحسرات وتنقطع الافئدة حسرةً و إياساً عن النفع والخلاص عما هم فيه

(التخلص العاشر)

هو أنه لما فرغ من ذلك خرج الى ذكر تمنّيهم الرَّجْعة الى الدنيا بقوله (فلو أنّ لنا كرَّة) فنَنْزع عما كنا عليه من عبادة غير الله وسلوكَ طريق التقوى ، والكونَ من جملة المؤمنين فى ذلك ، و (لَوْ) ههنا بمعنى ليت فلا تفتقر الى جواب مقدر

وجوابها فتكون ، أو تكون باقية على بابها ، وجوابُها يحذف كثيرا وتقديره فلو رجعنا لفعلنا كيتَ وكيتَ من الافعال الصالحة ، فانظر الى هذه الآية الشريفة كيف اشتملت على هذه التخلصات اللطيفة مع ما حازته من العجائب الحسان والأسرار ذوات الأفنان ، والعجب من الغانميّ حيث أنكر التخلص أن يكون واقعاً فى كتاب الله تعالى ، وما ذاك الا من أجل اشتغاله بفن الشعر والكتابة عن الاطلاع الى أسرار كتاب الله تعالى ، وهو أظهر من أن يحتاج الى طلب وعناية خاصة فى سورة الاعراف وسورة يوسف ، فانه سلك فيهما فنونا كثيرة ، وتخلص الى أودية مختلفة ، والقرآنُ كله مملوءٌ منه ، لانه لا يزال تكرير الكلام من وعد الى وعيد ، ومن ذكر قصص الى ذكر أمثال ، ومن ذكر أمرٍ الى نواهٍ ، ومن ترغيب الى ترهيب ، الى غير ذلك فكيف يمكن إنكار ما هذا حاله وهو أوسع ما يكون فى التنزيل

(المثال الثانى)

(من السنة النبوية)

وهذا كقوله عليه السلام وقد رأيتمُ الليلَ والنهار كيف

يُبْلِيَان كلّ جديد ، ويقرّبان كلّ بعيد ، ويأتيان بكل موعود ثم قال بعد ذلك فاذا التبست عليكم الأُمورُ كقِطَع الليل المُظْلِم فعليكم بالقرآن فانه شافعٌ مشفّع وشاهد مصدق فمن جعله أَمَامَه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفَه ساقه الى النار ، هو أوضح دليل الى خير سبيل فانظر الى ما أودعه فى هذا الكلام من التخلص الرائق، فبينا هو يذكر حال الليل والنهار وحكمهما فى المكونات إِذْ خرج الى حال القرآن ووصفه ، وأنه فيه الايضاح لكل مشكل ، وبيانٌ لكل أمر ملتبس ، تخلص الى ذكره بأحسن تخلص ، وهكذا قوله عليه السلام كأن الموت فيها على غيرنا كُتِبَ،وكأنّ الحق فيها على غيرنا وَجَبَ، الى ان قال طُوبَى لِمَنْ شغله عيبُه عن عيوب الناس ، فبينا هو يذكر الموت وأهواله وإِعْراض الخلق عن ذكره إِذ خرج الى ذكر النَّدْب الى اشتغال الإِنسان بعيب نفسه وإِهمال عيوب الخلق، فهذا من المَخَالص البديعة الى غير ذلك فى كلامه عليه السلام

﴿ المثال الثالث ﴾

(من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه)

وهو فى كلامه أكثرُ من أن يُحصر ، وخاصة فى العهود

الطويلة والكتب المنتشرة ، والكلمات الواسعة ، فانه يخرج فيها الى أودية كثيرةٍ ، فبينَا يتكلمْ فى أسلُوب الوعظ ، اذْ خرج الى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو الى وصف القرآن او الى غير ذلك من الأساليب المختلفة فيما يكون معدوداً من محاسن التخلصات ، ومَن أراد الوقوف من كلامه على محاسن التخليص فليطالع من ذلك ما أوْصَى به الحسَنَ بن علىّ فى وصيةٍ له ، فإنه جمعَ له من محاسن الآداب وأجمعها ، وأعظم الحِكَم وأنفعها ، ما لا يحتمله حصرٌ ، ولا يشتمله عدٌ ، ومن ذلك العهدُ الذى كتبه للأَشْتَر النخَعىّ لما أعطاه عُمَالة مصرَ وأدّبه بهذا العهد ، وجمع له فيه من محاسن الآداب وصفة الحِكْمة وفصل الخطاب ، ومن ذلك خطبتُه المسماة بالغرّاء فانه جمع فيها من الثناء على الله تعالى وذكره بالصفات اللائقة به وتنزيهه عما لا يليق بحاله ، ومِنْ جيّد كلامه فى التخلص قوله أرسله على حين فَتْرة من الرسل وانقطاع من الوحى وطول هجْعَة من الأمم واعتِزامٍ من الفتن وانتشار من الامور وتلَظٍّ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من وَرَقها ، وإياسٍ من ثمرها ، وإغْوَارٍ من مَائِها ، قد دَرَسَتْ أعلام الهدى ، وظهرتْ أعلامُ الرَّدَى ،

فهى متجهمة لاهلها ، عابسة فى وجه طالبها ، ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف ، فاعتبروا عباد الله واذكروا تلك التى آباؤكم واخوانكم بها مرتهنون ، وعليها محاسبون ، ولعمرى ما تقادمت بهم ولا بكم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون، فهذا الكلام مشتمل على تخلصات متعددة ، فبينا هو يذكر حال الرسول صلى الله عليه وسلم وما منّ الله به على الأمم ، اذ خرج الى حال الدنيا وصفتها وانقطاعها ، إذ خرج الى الوعظ والتذكير ، وما من كلام من كلامه وإن كان بسيطاً الاّ وتخلص فيه مخالص كثيرة ، كلّ ذلك فيه دلالة على تفنّنه فى الكلام وملكه لزمامه ، واستيلائه على خاصّه وعامّه

﴿ المثال الرابع ﴾

(ما ورد من كلام البلغاء)

فمن ذلك ما قاله ابن الأثير فى كتاب كتبه الى بعض اخوانه يذكر فيه الربيع فقال فيه : وكما أن هذه الاوصاف فى شأنها بديعة فكذلك شأنى فى شوقه بديع ، غير أنه فى حرّة فصل مصيف ، وهذا فصل ربيع ، فأنا أُملى أحاديثه العجيبة

على النوى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستقص حديث من قتله الهوى ، فبينا هو يذكر الربيع اذْ خرج الى ذكر الاشواق ، ومن هذا قوله ايضاً يصف البَرْدَ لمّا كان فى بلاد الروم فقال ومما أشكوهُ من بَرْدِها أن الفَرْوَ لا يُلْبَسُ بها الا فى شهر ناجرٍ ، وهو قائم مقام الظّل الذى يُتبرّد به من لَفح الهواجر ،ولفرطِ شدّته لم أجد ما يُخَفِّفه فضلاً عما يُذهبه، فإن النار المُعدَّة له تطلب من الدِّفْء أيضاً ما أطلبهُ ، لكن وجدت نار أشواق أشدَّ حرًّا فاصطليْت بجمرتها التى لا تُذْكَى بزِنَادٍ ، ولا تَؤُول الى رَمَاد ، ولا يُدفع البردُ الوارد على الجسد بأشدَّ من حرِّ الفؤاد ، غير أنى كنت فى ذلك كمن سَدَّ خَلَّةً بخَلَّة ، واستشْفَى من علّة بعلّة ، فما ظَنُّك بمَنْ يَصْطَلِى نارَ الأشواق ، وقد قَنِعَ من أخيه بالاوراق ، فَضَنَّ عليه بالأوراق ، فبينا هو يتكلم فى وصف البرد اذْ خرج الى وصف الأشواق ، ومما ورد فى التخلص من المنظوم قول ابى الطيب المتنبى فى بعض قصائده

خليلىَّ إنى لا أرى غير شاعر

فَلِمْ منهم الدعوى ومنّى القصائِدُ

فلا تعجبا إنّ السيوف كثيرةٌ
ولـكنَّ سيفَ الدولةِ اليومَ وَاحِدُ

فانظر كيف تخلص من الغزل الى المديح بأحسن خلاص وأعجبه . كما ترى، ومن عجيب ما جاء به فى كلامه هذا، هوأنه جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة فى بيت واحد، وهو من بدائعه المأثورة عنه فى غير موضع ، ومن ذلك ما قاله أبو تمام فى بعض قصائده

خُلُقٌ أَطَلَّ من الربيع كأنَّهُ
خُلُقُ الامامِ وهدْيُه المُتَيسِّرُ
فى الارض من عَدْلِ الامام وجُوده
ومن الشَّبَاب الغَضِّ شَرْخٌ يُزْهِرُ
يُنْسِى الرياضَ وما يُرَوِّضُ فعلُه
أبداً على مَرِّ اللياليى يذكرُ

فهذا وامثاله من لطائف التخليصات وأعجبها ، والشعراء يتفاوتون فى هذا الباب ، فربما اختص بعض الشعراء بالاجادة فى شعره من جزالة ألفاظه ، ودقة معانيه ، لـكنه مع هذا لم يَفُقْ فى التخليص كما فاق غيرُه من الشعراء ، كما يحكى عن

البحترى ، فإن مكانه فى الشعراء لا يُجْهل ، وشعرُه هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريباً ضوءها ، بعيداً مكانُها ، أو يكون كالقناةِ ، ليّناً مَسُّها ، خَشِناً سِنَانُها ، وقالوا أيضاً إنه فى الحقيقة قَيْنَة الشعراء فى الإطراب، وعَنْقَاؤُهمْ فى الإغراب، ومع ما حكيناه فانه لم يُجِدْ فى التخليص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً على وجهٍ لا ملاءمة بينه وبين الاول ، وله مواضع قليلة أحسن فيها التخلص ، لكنها حقيرةٌ بالاضافة الى ما أساء فيها الخلاص ، ومن أعجب ما يُذكر فى مثال التخلص ما حكاه ابن الأثير : أن قرْوَاشاً الملقَّبَ بشرف الدولة ملكَ العَرب صاحب المَوْصِلِ، اتفق انه كان جالساً مع نُدَمائه فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى جملتهم رجالٌ منهم البَرْقَعيدى وكان مُغَنّياً ، وسليمانُ بن فَهْد ، وكان وزيراً وأبو جابر ، وكان حاجباً ، فالتمسَ شرفُ الدولة من هذا الشاعر أن يهجو هؤلاء ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالاً قال فيها

وليلٍ كوجهِ البرقعيديّ مُظْلم
وَبَرْدِ أغانيه وطُولِ قرُونه
سَرَيْتُ ونومِى فيه نومٌ مُشَرَّدٌ
كعَقْلِ سليمانَ بن فَهْدٍ ودينه

على أَوْلقٍ فيه التفاتٌ كأنهُ
أبو جابرٍ فى خبْطِه وجُنُونهِ
الى أنْ بَدَا وجه الصباح كأنه
سنَا وجهِ قرْواشٍ وضَوْءِ جبينِه

فانظر الى ما أودعه فى هذه الأبيات من هجاء هؤلاء الثلاثة فى أبيات ثلاثة ، وتخلص فى البيت الرابع بأحسن الخلاص فى مدح شرف الدولة ، وهذه الابيات أحسن ما يورد فى أمثلة التخليص فهذا ما أردنا ذكره فى أمثلة التخليصات

﴿ الضرب الثانى ﴾

(فى الاقتضاب)

وهو نقيضُ التخليص ، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو بصدده ثم يستأنف كلاما آخرَ غيره من مديحٍ . أو هجاءٍ أو غير ذلك من أفانين الكلام لا يكون بين الاول الثانى ملائمةٌ ولا مناسبة، وهذا هومذهب الشعراء المتقدمين من العرب كامرئ القيس والنابغة وطرَفَة ولَبيد ، ومن تلاهم من طبقات الشعراء، فأمّا المحدثون من الشعراء كأبى تمام وابى

الطيب وغيرهم ممن تأخرّ فإنهم تصرفوا فى التخليصات فأبدعوا فيها وأظهروا كلّ غريبة كما أسلفنا تقريره ، ولنذكر أمثلة الاقتضاب فمن كتاب الله تعالى (واذكرْ عبادَنا إسحقَ ويعقوبَ أُولى الأَيْدِى والأبصارِ إِنّا أخلَصْناهمْ بخالصةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وإِنَّهُمْ عندَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ واذْكُرْ إِسمَعِيلَ والْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وكلٌّ مِنَ الأخيار هَذَا ذِكْرٌ وإنَّ للمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهمُ الأَبوابُ) فصدّر الكلام أولا بذكر الانبياء والثناء عليهم ثم ذكر بعده باباً آخرَ غير ذلك لا تعلُّق له بالأول ، وهو ذكرُ الجنة وأهلها ، ثم لمّا أتمّ ذكره عقّبه بذكر النار وأهلها بقوله) هذا وإِنَّ للطاغين لشرَّ مَآبٍ) فانظر الى هذا الاقتضاب الرائق ، والذى حسّن من موقعه لفظة (هذا) فانها جعلت له موقعا أحسن من التخليص ، وورودُها فى المنثور أكثرُ من ورودها فى المنظوم ، وقد قررنا فيما سبق حسن موقعها ، ومن محاسن الاقتضاب قول القائل أمّا بعدَ حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله فانها تأتى لقطع الكلام الاول عن الثانى ، وهذه اللفظة قد أجمع أهل

التحقيق من علماء البيان على أنها هى فصلُ الخطاب الذى أراد الله فى قوله (وآتيناهُ الحكمةَ وفصْلَ الخطاب) (وأما مثاله) من السّنة النبوية فقوله صلى الله عليه وسلم فلْيأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرتهِ ، ومن الشّبيبةِ قبل الكبَرِ ، ومن الحياةِ قبل الموت ، بعد قوله ألاَ وإنّ المرءَ بين مَخَافَتَيْن ، بين أجلٍ قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ به ، وبين أجلٍ قد بقِىَ لا يدرى ما اللهُ قاضٍ فيه ، فليأخُذِ العبدُ لنفسه من نفسه ، فانظر الى هذا الاقتضاب ما أعجبه وألْطَفَه يكادُ يقرُب من التخليص ، ومن تتبع كلامَه فى الخُطب والمواعظ فإنه يجدُ فيه من حسن الاقتضاب شيئاً كثيراً (وأما مثاله) من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه فكقوله ثم إنّ الدنيا دارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ وعبَرٍ وغِيَرٍ ، فمن الفَنَاء أنّ الدهرَ مُوترٌ قوْسَه لا يخطىءُ سهامُه ، ولا يُوسَى جِرَاحُه ، يرمى الحىّ بالموت ، والصحيحَ بالسَّقَم ، والناجِىَ بالعَطَب ، آكلٌ لا يشبَع ، وشاربٌ لا ينقَع ، ومن العناء أنّ المرء يجمعُ مالاَ يأكل ، ويَبْنى مالا يسكُن ، ثم يخرج الى الله تعالى لا مالاً حَمَل ، ولا بناءً نَقَل ، ومن عِبَرِها أنك ترى المغبُوطَ مَرْحُوما ،

والمَرْحُومَ مغبوطاً ، ليس ذلك إلا نَعيماً زَلَّ ، وبُؤْساً نزَل ، ومن غيرِها أنّ المرء يُشرفُ على أمَله ، فيقتطعه حضورُ أجله ، فلا أمَلَ يُدْرَك ، ولا مؤَمَّلَ يُتْرَك ، فسبحان الله ما أغَرَّ سرُورَها ، وأظمأَ رِيَّهـا ، وأضْحَى فَيْئَها ، لا جاءٍ يُرَدّ ، ولا ماض يَرْتَدّ، فسبحان الله ما أقرب الحيَّ من الميّت للحاقهِ به ، وأَبْعَدَ الميت من الحيّ لانقطاعه عنه ، إنه ليس شرٌّ من الشرّ الا عقابُه ، ولا خيرٌ من الخير الا ثوابُه ، وكلُّ شيء من الدنيا سماعُه أعْظَمُ من عيانِه، وكلُّ شيء من الآخرة عيانُه أعظمُ من سماعه ، فليَكْفكم من العيان السماع ، ومن الغيب الخبَر ، واعلموا أن كل ما نقص من الدنيا وزاد فى الآخرة خيرٌ مما نقص فى الآخرة وزاد فى الدنيا ، فكم من منقوص رَابحٌ ، ومَزيدٍ خاسرٌ ، إنّ الذى أُمرتم به أوسع من الذى نُهيتم عنه ، وما أُحلَّ لكم أكثرُ مما حُرّمَ عليكم ، فذَرُوا ما قلَّ لما كَثُر ، وما ضاق لما اتّسَع ، قد تُكُفِّلَ لكم بالرزق ، وأُمرتم بالعمل ، فلا يكونن المضمونُ لكم طلَبُه أولى بكم من المفروض عليكم عملُه ، مع أنه والله لقد اعترض الشكُّ ودُخلَ اليقينُ ، حتّى كأن الذى قد ضُمِنَ لكم قد فُرِض عليكم ، وكأَن

الذى قد فُرض عليكم قد وُضع عنكم ، فبادروا العمل ، وخافوا بَغْتَةَ الأجل ، فانه لا يُرْجَى من رجْعَةَ العمل ما يُرْجَى من رجْعةِ الرزق ، ما فاتَ اليوم من الرزق رُجِيَ غداً زيادتُه ، وما فاتَ أمس من العمر لم تُرْجَ اليوم رَجْعَتُه ، الرجاء مع الجائى واليأسُ مع الماضى ، فاتقوا الله حقَّ تُقَاتِه ولا تَمُوتُنَّ الاّ وأنتم مسلمون

وأقول إن هذا الكلام هو الشفاء بعد كلام الله ، والذى ينبغى أن يكون عليه الاعتماد بعد سُنَّة رسول الله ، فلقد ضمّنه من محاسن الاقتضاب من أبلغ الوعظ أعجب العُجاب ، وما فيه بلاغٌ وذكرى لأولى الالباب ، فانظر أيها المتأمل كيف افتتح الكلام بذمّ الدنيا وما اشتملت عليه من صروف المِحَن والبلوى، ثم خرج منه الى الخروج عن الدنيا ،ثم خرج منه الى ذكر غرورها ، ثم خرج منه الى ذكر منزلة الحىّ من الميت فى بُعدها وقربها،ثم أردفه بذكر حال الثواب والعقاب،ثم رجع الى ذكر حال الدنيا بوصف آخر مع الآخرة من زيادة أو نقصان ، ثم خرج الى ذكر الرزق وما ضُمِنَ منه ، ثم ذكر التكليف وما حمّلنا منه، ثم خرج الى ذكر الأمل وما حمّلنا منه،ثم خرج منه الى ذكر الامل وغروره،وذكر الأجل وحضوره،يقتضِبُ كلَّ

واحد من هذه الآداب اقتضاباً رُبّما كان أحسن من التخلص ، لما فيه من الرقة واللطافة ، ثم ختم هذا الكلام بختام هو لُبَابُ سرّه ، ونظام سلْكِهِ وعبقاتُ عَبيره . ونفحات مسكه ، وهو قوله فاتّقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتنّ الا وأنتم مسلمون ، فهى جامعة لجميع ما أسلفه ، ومؤكدة لما عدّده ورصفه ، فلو كان من كلام البشر معجزةٌ لكان هذا هو الأول ولو أعجز شيءٌ من الكلام بعد كلام الله لكان هذا هو الثّانى ، ومن بديع ما جاء فى الاقتضاب قولُ البحترى يمدح الفتحَ ابن خاقانَ بعد انخساف الجسْر به فى قصيدته التى مطلعها

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أوْ بدَا طَلَلٌ قَفْرُ
جرَى مُسْتَهَلٌّ لا بَكِيءٌ ولا نَزْرُ

وبعده

فتًى لا يزالُ الدهرَ بين رِباعِهِ أَيَادٍ له بِيضٌ وأَفْنِيَةٌ خُضْرُ

فبينا هو فى غزلها إِذْ خرج الى المديح على جهة الاقتضاب بقوله

لعمرُكَ ما الدُّنيا بناقصةِ الجْدَا
اذا بقِيَ الفتحُ بنُ خاقانَ والقطرُ

فخرج الى المديح من غير أن يكون هناك له سبب من الأسباب كما ترى ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس فى قصيدته التى مطلعها قوله (يَا كثيرَ النَّوْحِ فِى الدِّمَنِ) فضمّنها غزَلاً كثيراً ثم قال بعد ذلك

تضحكُ الدنيا الى مَلِكٍ * قامَ بالآثارِ والسُّنَنِ
سَنَّ للناس النَّدَى فَنَدُوا * فكأَنَّ المَحْلَ لم يَكُنِ

وأكثر مدائح أبى نواس مؤسّسةٌ على الاقتضاب من غير ذكر التخلص وفيما ذكرناه كفاية عن ابانة التخلص والاقتضاب فهذا ما اردنا ذكره فيما يختص بالدلائل المركبة وهو الباب الثالث

الباب الرابع

(من فن المقاصد فى ذكر انواع علم البديع وبيان أقسامه)

اعلم أن ما أسلفنا ذكره فى الباب الأول انما هو كلامٌ فيما يتعلق بكيفية الوضع ، إما فى الأصل فيكون حقيقة ، أو فى غيره فيكون مجازا ، والبابُ الثانى انما هو كلام فى الدلائل من جهة الالفاظ الإفرادية ، والباب الثالث إنما هو كلام فى